

طبقات الشافعية الكبرى

لِلنَّاجِ الدِّينِ أَبِي نَصْرٍ عَبْدِ الْوَهَّابِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ عَبْدِ الْكَافِي السُّبْكِيِّ

٧٢٧ - ٧٧١ هـ

تحقيق

الدكتور محمود محمد الطناحي الدكتور عبد القناح محمد داخلو

الجزء الأول

طبعة مصححة منقحة

مجتمعة الفهارس

الطبعة الأولى
في دار إحياء الكتب العربية
١٣٨٣ - ١٣٩٦ هـ = ١٩٦٤ - ١٩٧٦ م

الطبعة الثانية
في هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان
١٤١٣ هـ = ١٩٩٢ م

جميع الحقوق محفوظة

المكتب : ٤ ش ترعة الزمر - المهندسين - جيزة
٣٤٥٢٥٧٩ ☎ - فاكس ٣٤٥١٧٥٦
المطبعة : ٦ ، ٢ ش عبد الفتاح الطويل
أرض اللواء - ☎ ٣٤٥٢٩٦٣
ص . ب ٦٣ إمبابة

رقم الإيداع ٥٨١٨ / ١٩٩٢ م
I.S.B.N: 977 - 256 - 087 - 9

هجر

للطباعة والنشر والتوزيع

المكتب : ٤ ش ترعة الزمر - المهندسين - جيزة

☎ ٣٤٥٢٥٧٩ - فاكس ٣٤٥١٧٥٦

الطبعة : ٢ ، ٦ ش عبد الفتاح الطويل

أرض اللواء - ☎ ٣٤٥٢٩٦٣

ص . ب ٦٣ إمبابة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء وسيد المرسلين .
اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحابته أجمعين ، ومن دعا بدعوته
واهتدى بهديه إلى يوم الدين .

وبعد :

فهذا كتاب يضعه مصنفو العلوم في فن التراجم والطبقات ، ويضعه النظر الصحيح في
المكتبة العربية كلها ؛ إذ كان مؤلفه ، رحمه الله ، قد أداره على علوم الشريعة واللغة والأدب
جميعاً ، فهو لا يكاد ينتهي من ترجمة الرجل على راسمها المعروف ، حتى يخلص إلى مسائل من
علم الرجل وفقهه ، تفضي به إلى استطرادات ومداخلات كثيرة تكاد تأتي على جمهور علوم
العربية ، ويظهر لك هذا في مقدمته التي أبان فيها عن منهجه^(١) ، ويظهر لك أيضاً في فهرس
العلوم والفنون التي صنعناها وجمعناها فيها مانثره المؤلف خلال التراجم ، وتراه ثالثاً في تلك
التراجم المطولة لبعض الأعلام ، وهي تراجم توشك أن تكون كتباً مستقلة .
وقد ساقنا إلينا المقادير هذا الكتاب ونحن في غفوان الشباب وقوة الصبا ، فأعطانا
وأعطيناه : أعطانا معرفة بكثير من الكتب العربية ؛ صغارها وكبارها ، وقد أسلمتنا هذه
الكتب ، بعضها إلى بعض ، فسلكتنا ذروبها ، وعرفنا تاريخ أمتنا ، ووقفنا على مناهج أهل
العلم في حضارتنا . وأعطيناه حماسة الشباب وصبره وجلده ، فأخلصنا له أيامنا ، ولم نشغل
عنه بشيء آخر مما يحقق الشهرة السريعة .

ولقد صدر الجزء الأول من الكتاب سنة ١٣٨٣هـ = ١٩٦٤م ، فتقبله الناس بقبول
حسن ، وبالعوا في الثناء علينا ، والاحتفال بعملنا . والثناء حين يأتي في سن الشباب يشد العزم
ويلهب القوى ، وهكذا جرى عملنا في بقية الأجزاء ، نُجود ونُحسن ما استطعنا إلى ذلك
سبيلاً .

على أن هذا الكتاب قد واثقه ظروف حسنة : منها أننا بدأنا العمل به في ذلك الزمان الرخى
الهنىء « إذ الناس ناس والزمان زمان » . فالعلماء متوافرون مستقرّون ، والمكتبات زاخرة ،

(١) انظر الجزء الأول ٢٠٦ - ٢٢٠ .

ومجالس العلم مشهودة ، وديارُهُ ماثُوسَة ، وأهلُ الفُتيا على طَرَف الثُّمام . ومن هذه الظروف المواتية الحسنة عملنا في معهد المخطوطات ، فقد كان عملنا في ذلك المعهد العظيم رافداً واسعاً من روافد العلم والمعرفة ، ثم كان لنا من رُؤاد هذا المعهد ، من كبار العلماء ومن شُدّة العلم عونٌ ونُصح ، أفدنا منهما كثيراً .

وتروح أيام وتجيء أيام ، وتشتد الحاجةُ إلى طبعة ثانية من الكتاب ، فننظر في طبعتنا الأولى فإذا نحن قد سجّلنا على حواشيها شيئاً من التصحيح ، ثم نقرأها بعد أن عَلِمنا ما لم نكن نَعلم ، فتبدو لنا أشياء بعد أشياء ممّا أثَّرتْ يدُ العَفَلات ، فنُصلحها بما جاءت به القراءات المتجدّدة ، والتجارب المستفادة ، وبما جادت به المطابعُ من أصول ومراجع لم تكن متاحةً أيام الطبعة الأولى ، نذكر منها في باب التراجم خاصّة : سير أعلام النبلاء ، لشمس الدين الذهبي ، شيخ المصنّف ، والتكملة في وفيات الثّقلة ، لركّي الدين المنذرى ، وطبقات الشافعية للإسنوى ، وما ظهر من أجزاء الوافي بالوفيات للصّفدي . ولقد كانت إفادتنا عظيمة من سير أعلام النبلاء وحواشيه بوجه خاصّ . ولقد أفدنا أيضاً من ملاحظات القراء من أهل العلم ^(١) .

ويبقى أن نُشير إلى ما استحدثناه في هذه الطبعة الثانية :

أولاً : حَرَصْنَا على الالتزام بترقيم صفحات الطبعة الأولى .

ثانياً : جَرَّدْنَا فهرس كل جزء ، وسَلَكْنَاهَا كُلَّهَا في فهرسٍ موحد ، مما صحح كثيراً من الأعلام ، وكشف عن ما بهم علينا في الطبعة الأولى .

ثالثاً : كنّا قد تركنا في الطبعة الأولى فهرسة الجزء الأول ، وهو المشتمل على مقدّمة الكتاب حتى تتبيّن لنا أسانيدُ المؤلف ، ففهرسناه وأدْمَجْنَاهُ في الفهرس العام .

هذا ... وإنا نسأل الله عزّ وجلّ أن يعمّ النفع بهذا الكتاب العظيم بقدر ما بذله فيه مؤلّفه من جهد ، وبقدر ما اجتهدنا في إحياء هذا الجهد .

ولله الحمد في الأولى والآخرة .

المحقّقان

القاهرة في :

١٨ من ذى القعدة ١٤١٢ هـ

١٨ من مايو ١٩٩٢ م

(١) نذكر منهم : أستاذنا العلامة الشيخ عبد الفتاح أبو غُدّة - حفظه الله - في (قاعدة في الجرح والتعديل) التي استخرجها من ترجمة « أحمد بن صالح المصري » من الطبقات ، وفيما صحّحه من ترجمة الذهبي ، في الرسالة المسماة (ذكر من يعتمد قوله في الجرح والتعديل) للذهبي التي نشرها مع القاعدة المذكورة بمكتب المطبوعات الإسلامية - حلب ، بيروت - الطبعة الثالثة ١٤٠٠ هـ = ١٩٨٠ م ، وصديقنا الدكتور عبد العظيم الديب ، فقد أمَدَّنَا - أحسن الله إليه وجزاه خيراً - بتصحيحات جيّدة ممّا يتصل بإمام الحرمين الجويني .

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة التحقيق

(للطبعة الأولى)

(١)

يعتبر القرن الثامن الهجرى مرحلة من مراحل النشاط الفكرى ، التى ظهرت فى الدولة الإسلامية عقب الزحف التترى على بلاد الإسلام فى القرنين السادس والسابع ؛ فإن الأهوال العظيمة التى صحت هذا المد ، وما نجم عنها من إهلاك للبشر ، وتخريب للديار وحرق وإغراق للثروة العلمية على يد هؤلاء الهمج نبه جمهرة العلماء العرب ، ودفعهم دفعا إلى تراث آبائهم وأجدادهم ، فعكفوا عليه تحصيلا وفهما ، وتمثلوه علما وفنا ، ثم فرغوا بعد ذلك إلى أقلامهم يسجلونه على نحو جديد ، يدنيه من كل قلب ، ويحبه إلى كل نفس . وكان ذلك إيذانا ببداية عصر الموسوعات العلمية والأدبية ، ولمعت آنذاك فى سماء الفكر شخصيات فريدة ، من أمثال الذهبى والنويرى والصفدى وابن السبكى ، ثم أتى من بعدهم أمثال ابن حجر والسيوطى .

وعلى الرغم مما اكتنف القرن الثامن من ظلام الحكم المملوكى ومآسيه ، فإن همّة العلماء لم تفتقر ، وكأنما كانوا موكولين بتراث العرب وقد تجمع ما تبقى لديهم من أصوله ، كأنما وكلوا بهذا التراث يحفظونه من الضياع ، ويقونه شر الخطوب وكوارث الحروب ، وظلوا حفاظا على هذه الثروة الفكرية ، يسلمونها من جيل إلى جيل ، حتى أتت إلينا غنية موفورة ، تقدم بعض العزاء عن ما فقدناه من أصول الفكر العربى ، التى ذهب بها الغزو التترى ، وأتت على كثير منها الحروب الصليبية .

ولقد كانت أسرة زين الدين أبى محمد عبد الكافى بن على بن تمام السبكى^(١) ، المتوفى سنة ٧٣٥ هـ ، من بين الأسر التى شاركت بنصيب كبير فى تلك النهضة العلمية . فولده شيخ الإسلام تقى الدين أبو الحسن على المتوفى سنة ٧٥٦ هـ - والد تاج الدين أبى نصر عبد الوهاب المترجم - : « طار اسمه فملأ الأقطار ، وحلق على الدنيا ولم يكتف بمصر من الأمصار »^(٢) وقد ولى التدريس فى المنصورية ، وجامع الحاكم ، وجامع ابن طولون والهكارية بمصر ، والمسروية بدمشق . وتصدى لتقى الدين أحمد بن تيمية ، ورد عليه فى مسألتى : الطلاق ، وزيارة قبر النبى ﷺ ، ووقع عليه الاختيار سنة ٧٣٩ هـ ليكون قاضى قضاة الشام ، وولى بدمشق مع القضاء خطابة الجامع الأموى ، ومشیخة دار الحديث الأشرفية ، والتدريس بالشامية البرانية ، وصنف ما يربو على مائة وخمسين مصنفا فى العلوم الشرعية والعربية .

وحفيده بهاء الدين أبو حامد أحمد بن على المتوفى سنة ٧٧٣ هـ - أخو المترجم - : « كانت له اليد الطولى فى علوم اللسان العربى والمعانى والبيان »^(٣) ، تولى التدريس بجامع ابن طولون وجامع الظاهر ، والسيفية ، والهكارية ، وأسند إليه إفتاء دار العدل ، وقضاء العسكر وقضاء الشام ، وخطابة جامع ابن طولون .

وحفيده جمال الدين أبو الطيب الحسين بن على المتوفى سنة ٧٥٥ هـ - أخو المترجم - : « كان ذهنه ثاقبا ولإدراك المعانى مراقبا ، وكان يعرف العروض جيدا وينظم الشعر بل الدر ويأتى فى معانيه بالزهر الزهر ، عفيف اليد فى أحكامه »^(٤) ، وقد تولى التدريس بالهكارية وبالشامية البرانية .

أما حفيده تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن على ، فقد أوفى على الغاية ، واستطاع بذكائه وجده ودأبه أن يصل إلى أرق المناصب ، وأن يحتل مكان الصدارة فى الفتيا والتدريس ، وأن يخرج إلى الناس من مؤلفاته ما يبهى : غزارة علم ، وجمال عرض ، وحسن تنسيق .

(١) نسبة إلى سبك الأحد ، إحدى قرى محافظة المنوفية ، من دلتا مصر .

(٢) ترجمته (الطبقة السابعة) .

(٣) الدرر الكامنة ٢١١/١ .

(٤) ترجمته (الطبقة السابعة) .

ولد تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن قاضى القضاة تقى الدين أبى الحسن على بن زين الدين أبى محمد عبد الكافى بن ضياء الدين أبى الحسن على بن تمام بن يوسف بن موسى بن تمام السبكى بمصر سنة ٧٢٧ هـ . ذكر ذلك أكثر من واحد ممن ترجموا له ، ولكن ابن حجر بعد أن ذكر فى الدرر الكامنة أن مولده فى هذه السنة ، عاد فذكر فى طبقات الحفاظ التى جعلها ذيلًا على شرح البديعية لابن ناصر أن مولده كان فى سنة ٧٢٨ هـ . وقد وافقه ابن تغرى بردى فى المنهل الصافى والذهبى فى المعجم المختص فذكرا أن مولده كان فى سنة ثمان وعشرين وسبعمائة .

ولكن الزبيدى فى تاج العروس (س ب ك) يذكر أن مولده كان سنة ٧٢٩ هـ ، وربما نقل الزبيدى هذا عن السيوطى فى كتابه حسن المحاضرة .

وقد فتح تاج الدين عينيه على بيت يموج بالمعرفة ، ورأى وفود العلماء وهى تنسبل إلى مجلس أبيه ، ينهلون من علمه ، ويقيدون فوائده ، فليس غريبا أن يبدأ عبد الوهاب فى التحصيل مبكرا ، وأن يحفظ القرآن فى صغره ، ثم يأخذ عن والده أصول العربية والعقيدة والتشريع ويتلمذ لأساتذة عصره ، فيجيز له فى مصر بعد فترة وجيزة ابن الشحنة ، ويونس الدبوسى ، ويسمع على يحيى بن المصرى ، وعبد المحسن الصابونى ، وابن سيد الناس ، وصالح بن مختار وعبد القادر بن الملوك ، وغيرهم . ويذكر ابن تغرى بردى أيضا أنه سمع بمصر من المقدسى وطبقته .

وحين تولى والده منصب قاضى قضاة الشام رحل معه إلى دمشق ، فقدمها فى جمادى الآخرة سنة تسع وثلاثين وسبعمائة ، وفى دمشق سمع من زينب بنت الكمال ، وابن أبى اليسر ، وابن تمام ، وقرأ بنفسه على المزى ، ولازم الذهبى ، وتخرج بتقى الدين ابن رافع ، وأخذ عن الشيخ أثير الدين أبى حيان ، وأجاز له الحجار ، وخرج له ابن سعد مشيخة حدث بها .

ولم يكتف ابن السبكى بتلقيه المعرفة على هؤلاء الأعلام ، وإنما اتجه إلى التحصيل بنفسه

وأقبل على العلم بهمة فتيّة ، ونفس مشوقة ، حتى قال عنه العماد الحنبلي : « طلب بنفسه ودأب » ، وقال عنه ابن حجر العسقلاني : « أمعن في طلب الحديث ، وكتب الأجزاء والطباق ، مع ملازمة الاشتغال بالفقه والأصول والعربية حتى مهر وهو شاب » .

وقد صور تاج الدين هذه الحقبة من حياته في كتابه الطبقات ، وكشف عن اهتمام والده بتربيته ، وحرصه على تثقيفه ، على يد كبار العلماء ، ممن يثق في علمهم ، ويطمئن إلى وسائلهم في الدرس والتلقين ، فقال في ترجمة شيخه المزيّ في الطبقة السابعة : « وكنت أنا كثير الملازمة للذهبي ، أمضى إليه في كل يوم مرتين : بكرة ، والعصر . وأما المزيّ فما كنت أمضى إليه غير مرتين في الأسبوع ، وكان سبب ذلك أن الذهبي كان كثير الملاطفة والمحبة فيّ ، بحيث يعرف من عرف حالي معه أنه لم يكن يحب أحداً كمحبته فيّ ، وكنت أنا شابا ، فيقع ذلك مني موقعا عظيما ، وأما المزيّ فكان رجلا عبوسا مهيبا ، وكان الوالد يحب أن ألزم المزيّ أكثر من ملازمة الذهبي ، لعظمة المزيّ عنده . وكنت إذا جئت غالبا من عند شيخ يقول : هات ، ما استفدت ، ما قرأت ، ما سمعت ؟ فأحكي له مجلسي معه ، فكنت إذا جئت من عند الذهبي يقول : جئت من عند شيخك . وإذا جئت من عند الشيخ نجم الدين القحقازي يقول : جئت من جامع تنكّر ، لأن الشيخ نجم الدين كان يشغلنا فيه ، وإذا جئت من عند الشيخ شمس الدين بن النقيب يقول : جئت من الشامية ، لأنني كنت أقرأ عليه فيها . وإذا جئت من عند الشيخ أبي العباس الأندلسي يقول : جئت من الجامع لأنني كنت أقرأ عليه فيه . وهكذا ، وأما إذا جئت من عند المزيّ فيقول : جئت من عند الشيخ . ويفصح بلفظ الشيخ ، ويرفع بها صوته . وأنا جازم بأنه إنما كان يفعل ذلك ليثبت في قلبي عظيمته ، ويحثني على ملازمته » .

ويدل على عناية والده به ، وحرصه عليه ، مع نجابة تاج الدين ونباهة شأنه ، ما يحكيه في الطبقات في ترجمة المزيّ أيضاً ، حين يذكر أنه : « شغل مرة مكان بدار الحديث الأشرفية فنزلني فيه ، فعجبت من ذلك ، فإنه كان لا يرى تنزيل أولاده في المدارس . وها أنا لم أُل

في عمرى فقهة في غير دار الحديث ، ولا إعادة إلا عند الشيخ الوالد ، وإنما كان يؤخرنا إلى وقت استحقاق التدريس . على هذا ربانا رحمه الله . فسألته فقال : ليقال إنك كنت فقيها عند المزي . ولما بلغ المزي ذلك أمرهم أن يكتبوا اسمي في الطبقة العليا ، فبلغ ذلك الوالد فانزعج وقال : خرجنا من الجد إلى اللعب ، لا والله ، عبد الوهاب شاب ، ولا يستحق الآن هذه الطبقة ، اكتبوا اسمه مع المبتدئين . فقال له شيخنا الذهبي : والله هو فوق هذه الدرجة ، وهو محدث جيد - هذه عبارة الذهبي - فضحك الوالد وقال : يكون مع المتوسطين » .

وقد كان لهذا النبوغ المبكر أثره في لفت أنظار معاصريه إليه ، وتولييه المناصب العلمية في سن لم يُسمع أن أحدا وليها فيه ، فقد أجازته شمس الدين ابن النقيب بالإفتاء والتدريس ، ولما مات ابن النقيب كان عمر تاج الدين ثمان عشرة سنة .

وانتبه الذهبي إلى ما يتميز به تاج الدين ، فسجل في ترجمته له في المعجم المختص^(١) قوله : « عبد الوهاب ابن شيخ الإسلام تقي الدين علي بن عبد الكافي القاضي ، تاج الدين أبو نصر السبكي الشافعي ، ولد سنة ٧٢٨ هـ . كتب عنى أجزاء نسخها ، وأرجو أن يتميز في العلم ، درس وأفتى ، وعنى بهذا الشأن » .

وقال عنه بعد ذلك الحافظ شهاب الدين بن حجر^(٢) : « حصل فنونا من العلم : من الفقه ، والأصول وكان ماهرا فيه ، والحديث والأدب ، وبرع وشارك في العربية ، وكان له يد في النظم والنثر ، جيد البديهة ، ذا بلاغة وطلاقة لسان وجرأة جنان ، وذكاء مفرط ، وذهن وقاد » .

وتولى أبو نصر بعد هذا مناصب عديدة ، فقد تولى التدريس في العزيزية ، والعدالية الكبرى ، والغزالية ، والعدراوية ، والشاميتين ، والناصرية ، والأمينية ، ومشيخة دار الحديث الأشرفية ، والتقوية ، والدماغية ، والمسروية ، كما تولى تدريس الشافعي بمصر والشيخونية ، والميعاد بالجامع الطولوني .

(١) نقلا عن الكتاني في فهرس الفهارس .

(٢) نقلا عن ابن حجر في الدرر الكامنة .

كما تولى تاج الدين خطابة الجامع الأموى بدمشق ، وناب عن أبيه فى الحكم ، وولى توقيع الدّست سنة ٧٥٤ هـ - وكتاب الدست يجلسون مع كاتب السر بمجلس السلطان بدار العدل فى المواعيد ، على ترتيب منازلهم بالقدمة ، ويقرأون القصص على السلطان ، بعد قراءة كاتب السر ، على ترتيب جلوسهم ويوقعون على القصص كما يوقع عليها كاتب السر - يقول تاج الدين : « وقد وليت توقيع الدست بالشام ، بين يدي ملك الأمراء الأمير علاء الدين أمير على بن على الماردينى نائب الشام » .

وقد تولى أبو نصر قضاء الشام فى ربيع الأول سنة ست وخمسين وسبعمائة ، ذكر ذلك ابن العماد الحنبلى ، وذكر أن هذا تم بسؤال والده ، ولكن ابن حجر العسقلانى يذكر فى « الدرر الكامنة » أن توليه القضاء كان فى ربيع الأول سنة سبع وخمسين .
وقد ظل تاج الدين يشغل هذا المنصب إلى أن وافاه أجله ، وكان ذلك على أربع مراحل ؛ فقد عزل مدة لطيفة - كما يقول ابن العماد - ثم أعيد ، ثم عزل بأخيه بهاء الدين ، وتوجه إلى مصر على وظائف أخيه .

ويصف لنا صلاح الدين الصفدى هذه الفترة ، وشوق دمشق إلى تاج الدين ، فى رسالة رد بها على رسالة من تاج الدين وهو بمصر سنة ٧٦٣ هـ ، فيقول^(١) :

لكن جعلت الشام بعد	دك كالبحيم وكان جنة
ودمشق بعدك قد ترد	ت ثوب حزن فيه دكنة
لم يسق من يرد البرد	ص ولو أتى أولاد جفنة
وكذاك ثورا بعد بعد	دك ما تنسى بل تسنة
والجامع المعمور كما	د يززع الأشواق ركنة
والقبة الشماء ليد	س بجوها للنسر فنة
كانت به الأعطاف وهـ	سى موائد يملأن صحنة

(١) الطبقات الكبرى ، ترجمة خليل بن أليك الصفدى (الطبقة السابعة) .

والآن أقفر وحشة وأسأل منه السقف دهنة
والله خيب فيك ما قال الحسود ورد ظنة
قد كاد حتى كاد يدسى ما تقوله عرضنة

ثم عاد تاج الدين إلى القضاء على عادته ، وولى الخطابة بعد وفاة ابن جملة ، ثم عزل وحصل له فتنة شديدة ، وسجن بالقلعة نحو ثمانين يوما ، ثم عاد إلى القضاء .

ومن يعرف الأحوال السياسية في ذلك العصر ، لا يدهش لمثل هذه الأمور ، فقد كان تولية قاض وعزله من الأمور السهلة الهينة ، التي لا يرى فيها الحكام الممالك إنما ولا حرجا ؛ ولكن عزل تاج الدين في المرة الأخيرة يسترعى الانتباه ، فإن الأمر لم يقف عند مجرد عزله ، وإنما أجريت محاكمة لتاج الدين ، حكم فيها ابن قاضى الجبل بحبس تاج الدين سنة ، وهرب أخوه بهاء الدين ، فاختفى عند التاج الملكى ، وهو يومئذ مباشر بالشام قبل أن يسلم ، واجتهدوا في طلبه فلم يظفروا به .

ولكن ترى ما سبب هذه المحاكمة ، وذلك الاضطهاد للأسرة كلها ؟!

يورد ابن حجر العسقلاني تفسيرين لهذه الحادثة :

أولهما قوله : وكان من أقوى الأسباب في عزله المرة الأخيرة ؛ أن السلطان لما رسم بأخذ زكوات التجار في جمادى الأولى سنة ٦٩ ، وجد عند الأوصياء جملة مستكثرة ، لكنها صرفت بعلم القاضى بوصلات ليس فيها تعيين اسم القابض ، فأريد من ناظر الأيتام أن يعترف أنها وصلت للقاضى ، فامتنع ، فآل الأمر إلى عزل القاضى .

وثانيهما قوله : قرأت بخط القاضى تقى الدين الزبيرى : لما قُتل يلبغا طلب الأشرف أمير على الماردىنى ، ومنكلى بؤغا أتاك العساكر ، فكان أول شيء تكلم فيه أمير على عزل تاج الدين ، وقرر في القضاء عوضا عنه الشيخ سراج الدين البلقينى ، فولى القضاء والخطابة وتوجه ، وكشفوا على تاج الدين ، وحكم ابن قاضى الجبل بحبس تاج الدين سنة .

ويبدو لنا أن كل واحد من التفسيرين يوضح جانباً من الحقيقة ، فإن ابن تغرى بردى يذكر في النجوم الزاهرة - أثناء الحديث على ولاية الأشرف - : أن أمير على حين ولى إمرة الشام كان أول ما طالب به عزل القضاة . ولعلها فرصة سنحت لمن غصّت حلوقهم بالمرارة منه من العلماء ، فقد كانوا ينفسون عليه مكانته ، ويحسدونه على ما أوتى من علم ، وما أصاب من نجاح لدى الحكام وجمهور الناس ، فلا عجب أن نراهم ينسجون حوله هذه التهمة ، ويقفون منه هذا الموقف العدائى العنيف ، خاصة وأنه كان يعطى نفسه حقها من التكریم ، فقد ذكر السيوطى أنه قال فى ورقة كتبها إلى نائب الشام : « وأنا اليوم مجتهد الدنيا على الإطلاق ، لا يقدر أحد يرد علىّ هذه الكلمة » ، ويعقب السيوطى على ذلك بقوله : « وهو مقبول فيما قال عن نفسه » .

ولعل ما نذر تاج الدين نفسه له ، من دراسة لأحوال الأمة الإسلامية فى عصره ، ونقد لطوائف الناس ، وتوضيح لأخطائهم ، ورسم السبيل إلى إصلاحهم فى كتابه العظيم « معيد النعم ومبيد النقم » كان من أقوى الأسباب فى عزله ، واختلاق هذه الأحداث حوله ، فقد استطاع تاج الدين أن يعالج مشكلات الأمة الإسلامية فى هذا الكتاب ، فى اثنتى عشرة ومائة مسألة ، بادئاً بالسلطان والمناصب السلطانية والعسكرية ، متدرجاً إلى كل الوظائف العامة ، حتى يصل إلى الفلاح فى أرضه ، ويقرر فى صراحة ندر أن تجدها فى عصره : « أن الفلاح حر لا يد لآدمى عليه » .

لعل ذلك كله رسم جوانب المأساة ، ولكن تاج الدين ، بشهادة معاصريه وقف موقف العالم المثبت ، والداعية المؤمن بدعوته ؛ فقد قال عنه معاصره ابن كثير : « جرى عليه من الحن والشدائد ما لم يجر على قاض قبله ، وحصل له من المناصب والرياسة ما لم يحصل لأحد قبله ، وانتهت إليه الرئاسة بالشام ، وأبان فى أيام محنته عن شجاعة وقوة على المناظرة ، حتى أفحم خصومه ، ثم لما عاد عفا عنهم ، وصفح عمن قام عليه » .

ولقد طارت شهرة تاج الدين فى كل الأقطار الإسلامية ، وأصبح عمدة الناس فى

الفتيا ، وكان أهل مصر يرسلون إليه يستفتونه في كثير مما يعرض لهم ، كما يقول المقرئ في « المواعظ والاعتبار » .

يقول ابن حجر في ذكر رجوعه إلى القضاء في المرة الأخيرة ، نقلا عن القاضي تقي الدين الزبيري : « ولم يزل من يتعصب للسبكي يلح على أمير على ، حتى أذن في إحضار تاج الدين وأخيه من دمشق ، فقدم بهاء الدين القاهرة ، وأقام تاج الدين في دمشق ، فلما بلغ ذلك البلقيني توجه إلى مصر ، فأقام قليلا ، ثم رجع إلى دمشق ، فتسلط عليه أهل الشام ، وكتبوا فيه محضرا ، وأسمعوه ما يكره . وسعى بهاء الدين لأخيه حتى ولى الخطابة ، فخطب أول يوم من شوال ، فشق ذلك على البلقيني ، وخرج بأهله وعياله إلى القاهرة ، فأعيد تاج الدين إلى القضاء ، وهى الولاية الأخيرة التى مات فيها » .

وبعد هذه الحياة الحافلة بجلائل الأعمال توفى تاج الدين أبو نصر بن على شهيدا بالطاعون ، بالدهشة ظاهر دمشق ، فى ذى الحجة ، خطب يوم الجمعة ، وطعن ليلة السبت رابعه ، ومات ليلة الثلاثاء سابعه سنة ٧٧١ هـ ، ودفن بترية السبكىة بسفح قاسيون ، عن أربع وأربعين سنة .

(٣)

هذه الحياة الحافلة التى عاشها تاج الدين تدل على ما كان يتمتع به من ثقافة واسعة رحية ، رفدتها أفكار شيوخه ، وهذبها حرصه ودأبه ، ثم تولى بسطها أمام الناس ذهنً وقاد لسان طلق ، وحجة قوية ، ونشرها بين جمهرة المثقفين ما أخذ نفسه به من التقييد والتأليف وما قُدر لمؤلفاته من القبول والنجاح .

وأول ما يلفت النظر فى ثقافة تاج الدين أنها ثقافة فقهية ، فقد حظى الفقه فى ذلك الوقت باهتمام العلماء ، لحاجة الناس إليه ، ولتصدر مناصب الفتيا والقضاء ، وقد ضرب تاج الدين فى هذا الفن بسهم وافر ، وألف فيه ، وجمع لوالده فتاويه وكثيرا من المسائل التى تفرد

فيها برأى ، أو رجع فيها قولاً على قول ؛ وقد بلغ من اهتمامه بالفقه أنه ملأ الطبقات الكبرى بمسائله ، وبسط فيها مناظراته .

كما اهتم تاج الدين بأصول الفقه ، وصنف في ذلك مختصراً ، جمعه من زهاء مائة مصنف مع زيادات قيدها ، وبلاغة في الاختصار .

وعنى بالحديث ، فروى السنة عن حفاظ عصره ، وقد صدق ابن حجر في قوله : « ومن الطبقات تعرف منزلته في الحديث » . واهتم بالجرح والتعديل ، وله في نقد الرجال نظرات نافذة . وهو يضع في ذلك قواعد ، يستدرك بها على من سبقه . ففى ترجمة أحمد بن صالح المصري (الطبقة الأولى) يقول : « الصواب عندنا أن من ثبتت إمامته وعدالته ، وكثر مادحوه ومزكوه ، وندر جارحه ، وكانت هناك قرينة دالة على سبب جرحه : من تعصب مذهبي أو غيره ، فإننا لا نلتفت إلى الجرح فيه ، ونعمل فيه بالعدالة . وإلا لو فتحنا هذا الباب ، أو أخذنا تقديم الجرح على إطلاقه لما سلم لنا أحد من الأئمة ، إذ ما من إمام إلا وقد طعن فيه طاعنون ، وهلك فيه هالكون » .

وقد ناقش ابن السبكي مشكلات العقيدة ، وخلافيات علم الكلام ، ومسائل المنطق في كثير من المواضع ، في الطبقات الكبرى ، وعقد للحديث عن الإيمان والإسلام والإحسان ، وزيادة الإيمان ونقصانه ، والقدر فصلاً طويلاً في المقدمة ، وأفاض في هذه المسائل ؛ مما يدل على بصره بعلم الكلام ، وطول باعه فيه .

ولتاج الدين ولع بمعرفة الحوادث التاريخية ، وسير الرجال ، وقد دفعه هذا إلى الإحاطة بالتاريخ الإسلامي ، وإلى التنقيب في تاريخ العلماء ، والاستفادة من تجاربهم ، وهو يدرك بذكائه مواطن الوهن في مؤلفات من سبقه ، ويحاول أن يضع لنفسه ، ولن يأتي بعده قواعد في التاريخ ، ونهجاً في سرد الحوادث .

ورغم محبته لشيخه الذهبي وإعزازه له ، فقد أخذ عليه أموراً في تاريخه ، يقول في ترجمة أحمد بن صالح المصري أيضاً : « وأما تاريخ شيخنا الذهبي - غفر الله له - فإنه على حسنة

وجمعه مشحون بالتعصب المفرط - لا واخذه الله - ، فقد أكثر الوقعة في أهل الدين ، أعنى الفقراء الذين هم صفوة الخلق ، واستطال بلسانه على كثير من أئمة الشافعيين والحنفيين ، ومال فأفرط على الأشاعرة ، ومدح فزاد في المجسمة . وهذا وهو الحافظ المذره ، والإمام المبجل ، فما ظنك بعوام المؤرخين » .

ويعقب ابن السبكي على ذلك بذكر قاعدة في المؤرخين فيقول : « فالرأى عندنا أن لا يُقبل مدح ولا ذم من المؤرخين إلا بما اشترطه إمام الأئمة ، وحبر الأمة ، وهو الشيخ الإمام الوالد رحمه الله حيث قال ، ونقلته من خطه في مجاميعه : يشترط في المؤرخ الصدق ، وإذا نقل يعتمد اللفظ دون المعنى ، وأن لا يكون ذلك الذى نقله أخذه في المذاكرة وكتبه بعد ذلك ، وأن يسمى المنقول عنه ، فهذه شروط أربعة فيما ينقله . ويشترط فيه أيضاً لما يترجمه من عند نفسه ، ولما عساه يطول في التراجم من النقل ويقصر أن يكون عارفاً بحال صاحب الترجمة : علماً ، وديناً ، وغيرهما من الصفات ، وهذا عزيز جداً . وأن يكون حسن العبارة عارفاً بمبدلولات الألفاظ ، وأن يكون حسن التصور ؛ حتى يتصور حال ترجمته جميع حال ذلك الشخص ، ويعبر عنه بعبارة لا تزيد عليه ، ولا تنقص عنه ، وألا يغلبه الهوى ، فيخيل إليه هواه الإطناب في مدح من يحبه ، والتقصير في غيره ، بل إما أن يكون مجرداً عن الهوى ، وهو عزيز ، وإما أن يكون عنده من العدل ما يقهر به هواه ، ويسلك طريق الإنصاف . فهذه أربعة شروط أخرى » .

ورغم اشتغال ابن السبكي بالفقه والحديث والتاريخ فقد احتفل بعلوم اللسان العربى ، وأفسح من صدر كتابه الطبقات لمسائل النحو والصرف والبلاغة والعروض ، واهتم بغريب اللغة ، بل إنه استدرك على ابن الأثير حديث زبّان بن قيسور ، وقال عنه^(١) : « إن ابن الأثير لم يذكره في نهاية غريب الحديث ، مع شدة تفحصه » .

(١) الطبقات الكبرى ٢/٢٠٠ : ترجمة محمد بن إبراهيم البوشنجى (الطبقة الثانية) .

وقد تعلق أبو نصر بدراسة الأدب منذ صباه ، واهتم بالشعر وصناعته ، وله في ذلك نظرات نافذة في اختيار كلمة دون كلمة ، أو تفضيل شاعر على شاعر ، تجد ذلك مبسوطاً في طول كتابه الطبقات وعرضه ، وقد صحب في حادثة سنه صلاح الدين خليل بن أيك الصفدى ، وهذه الصحبة استطاع السبكى أن يشحذ ملكته ، وأن يتناول القريض كما يتناوله مثله من العلماء ، يقول تاج الدين :

« كنت أصحبه منذ كنت دون سن البلوغ ، وكان يكاثبنى وأكاثبه ، وبه رغبت في الأدب فرمما وقع لى شعر ركيك من نظم الصبيان فكتبه هو عنى إذ ذاك وأنا ذاكر بعض ما بيننا مما كان فى صغرى .

ثم لما كان بعد ذلك كتب إلى مرة ، وقد سافر إلى مصر ولم يودعنى :

يا سيدا سافرت عنه ولم أجد جلدى يطاوعنى على توديعه
إن غبت عنك فإن قلبى حاضر يصف اشتياقى للحمى وربوعه
فى أبيات آخر ، فكتبت الجواب :

يا راحلا بجشا المقيم على الوفا ما الطُرف بعدك مؤذنا بهجوعه
إن غبت عنه فما تغير منه إلا م جسمه سقما ولون دموعه
والقلب بيت هواك كأنه بيت العروضيين من تقطيعه
فى أبيات آخر نسيها » .

ويستطرد ابن السبكى فى ذكر هذه المطارحات فيقول :

« كتب إلى مرة - وقد ولد له ولد - يدعونى إلى حضور عقيقته :

عبدك هذا الجديد أضحى يقول فاسمع له طريقه
يا جوهر فى الزمان فردا ماضر أن تحضر العقيقه
فكتبت إليه :

هئت ذا الجوهر المفدى بالعرض الكنه والحقيقه
لو لم تكن حازما مصيبا لم تفتد الناس بالعقيقه

وأعارنى مرة من تذكّرتّه مجلداً ، وكان يصنّف كتاباً فى الوصف والتشبيه ، وينظر عليه التذكرة ، ويكتب على كل مجلد إذا نجز : نجز التشبيه منه . فلما وجدت ذلك عليه بخطه ، قلت : هذا نصف بيت . فكتبت إلى جانبه :

نجز التشبيه منه	وروى الراون عنه
إن مولانا لبحرٌ	طافح إن لم يكنه
فاقد التشبيه فرد	فدع التشبيه منه

وكتب تاج الدين إلى الصفدى من القاهرة فى سنة ثلاث وستين وسبعمائة - وقد ذكر ابن حبيب فى درة الأسلاك بعض هذه الأبيات ، وهى بتمامها مع رسالة طويلة ، ورد الصفدى عليها مثبتة فى ترجمة خليل بن أيلك فى الطبقة السابعة - :

لا تُبكين ماءً تسنُّه	ودع الرسوم المُستجِنَّه
خلّ ادكارك فالدمو	ع كليله آثار دمنه
واهجر حبيبا نار خدّ م	يه إذا حققت جنّنه
وسنان كم نبهته	والعجب يطبق منه جفنه
أحوى بديع الحسن ظب	ياً فى الحقيقة أو كائنه

فى قصيدة طويلة يمدح فيها صلاح الدين .

وتلمح فى أثناء القضايا الأدبية التى يعرضها تاج الدين فى الطبقات مقدار ما كان يتمتع به من إدراك لمواطن الضعف والقوة فى النص الأدبى ، ففى ترجمة محمد بن عبد اللطيف السبكى - الطبقة السابعة - يذكر قصيدته التى يبدؤها بقوله :

وافتك عن قرب تباشير الفرخ وأنتك مسرعةً مباشر المنح

ثم يقول : وهذه قافية حلوة ، أول من بلغنى نظم فيها عبد الله بن المعتز ، حيث يقول :

خلّ الزمان إذا تقاعس أو جمح	واشكّ الهموم إلى المدامة والقدح
واحفظ فؤادك إن شربت ثلاثة	واحذر عليه أن يطير من الفرخ

في أبيات ، أنكر عليه قوله فيها :

وإذا تبادى في العتاب قطعته
وقال مهيار :

ما كان سهماً غار بل ظيباً سنح
في خده الكافور سبعة عنبر
إن لم يكن قتل الفؤاد فقد جرح
ما كان أغفلنى الغداة عن السبح
في أبيات أنكر عليه قوله فيها : « بَطَحَ »^(١) .

وقال ابن سناء الملك يمدح الفاضل :

ياقلب ويحك إن ظبيك قد سنح
فتنحَّ جهدك عن مراتعه تنح

ثم يستطرد ابن السبكي ، فيقول : ثم إنه اعترض ابن المعتز ومهيار بما اعترضهما ، ووقع هو في واحدة ، وهى قوله : « لا نمنح » فإنها لحن ، ولأبيات منها :

إن كان عبد الله أخطأ قوله
بالبضم والتقييل حتى نصطلح
وأنى بشيء ليس يحسن ذكره
مهيار حيث يقول قافيةً بطح
فلقد لحت وقلت فيما قلته
لو شئتُ أمسحه بلثمى لا نمنح

في أشباه لهذا كثيرة ، تجدها في الطبقات الكبرى .

وكان ابن السبكي يقرض الشعر في المناسبات التي تعود مثله من العلماء قول الشعر فيها ، فهو يرثى شيخه الذهبى ، ويذم الزمان ، ويرد على الزمخشري أبياته في الصفات ، ويراسل أقرانه بالشعر .

كما حجب إلى تاج الدين النظم في العلوم والمعارف ، فنظم قصيدته في الخلافات بين الأشاعرة والماتريدية ، وخص معجزات الرسول بإحدى قصائده ، كما نظم أرجوزة في الفقه وهو مسجون ، إبان فتنه عزله عن القضاء في المرة الأخيرة .

(١) البيت في ديوانه ١٨٧/١ وهو :

طُرِفَ تعوّد أنه لو طارد الر
يح الشمال عليه فارسُه بطح

وقد تمثلت ثقافة تاج الدين أئى نصر عبد الوهاب بن على فى هذه المؤلفات التى خلفها :

١ - أحاديث رفع اليدين

ذكره بروكلمان .

٢ - الأشباه والنظائر . فى الفروع

ذكره ابن حجر ، وابن حبيب ، وابن تغرى بردى ، وابن العماد ، وحاجى خليفة ، وبروكلمان .

٣ - أوضح المسالك فى المناسك

ذكره بروكلمان .

٤ - تبين الأحكام فى تحليل الحائض

ذكره بروكلمان .

٥ - ترجيح تصحيح الخلاف

ذكره بروكلمان .

٦ - ترشيح التوشيح . فى أصول الفقه

ذكره ابن حجر ، وابن العماد ، والكتانى ، وحاجى خليفة ، وبروكلمان .

وذكر المصنف التوشيح فى ٦١/٣ ، ١٤٨ ، ٢٥٨ ، ٢٩٦ .

٧ - الترغيب والترهيب . ذكره هو فى الجزء الأول ١٥١ .

٨ - توشيح التصحيح

ذكره ابن حجر ، وابن حبيب ، وابن تغرى بردى ، وابن العماد ، وحاجى خليفة ، وبروكلمان .

٩ - جزء فى الطاعون

ذكره حاجى خليفة .

١٠ - جلب جلب

ذكره ابن العماد ، وقال عنه : جواب عن أسئلة سأل عنها الأذرعى وغيره .

١١ - جمع الجوامع . فى أصول الفقه

طبع فى مجموع فى مصر ١٣١٠ هـ . قال صاحب كشف الظنون : جمعه من زهاء مائة مصنف ، مشتمل على زبدة ما فى شرحه على مختصر ابن الحاجب والمنهاج ، مع زيادات وبلاغة فى الاختصار ، ورتب على مقدمات وسبعة كتب .

١٢ - الدلالة عن عموم الرسالة ، جوابا عن أسئلة أهل طرابلس

ذكره بروكلمان .

١٣ - رفع الحاجب عن شرح مختصر ابن الحاجب . فى الأصول

ذكره ابن حجر ، وابن حبيب ، وابن تغرى بردى ، وابن العماد ، والكتانى ، وحاجى خليفة ، وبروكلمان .

١٤ - رفع الحوبة فى وضع التوبة

ذكره المصنف فى ٣٢٧/٢ ، وذكره بروكلمان .

١٥ - السيف المشهور فى شرح عقيدة أبى منصور [الماترىدى]

ذكره المصنف فى ٣٨٤/٣ ، وذكره حاجى خليفة .

١٦ - شرح منهاج الوصول إلى علم الأصول ، للبيضاوى

ذكره ابن حجر ، وابن حبيب ، وابن تغرى بردى ، وابن العماد ، والكتانى ، وحاجى خليفة .

١٧ - طبقات الشافعية الصغرى والوسطى والكبرى

١٨ - فتاوى

ذكره بروكلمان .

١٩ - قواعد الدين وعمدة الموحدين

ذكره بروكلمان ، وذكر ابن حجر هذا الكتاب باسم : القواعد المشتملة على الأشباه والنظائر .

٢٠ - مصنف فى علم الألفاظ

ذكره حاجى خليفة .

٢١ - معيد النعم ومبيد النقم

طبع فى ليدن ١٩٠٨ م بعناية الأستاذ David. W. Myhrman وطبع أيضاً بالقاهرة طبعات مختلفة .

٢٢ - مناقب الشيخ أبى بكر بن قوام

ذكره بروكلمان .

٢٣ - منع الموانع

وهو تعليق على جمع الجوامع . طبع فى مجموع - مصر ١٣٢٢ هـ .

لم يكن ابن السبكي أول من صنف في طبقات الشافعية ، ولا آخر من أدلى دلوه ، فقد سبقته جهود وتلته تصانيف . وقد ذكر في مقدمته من صنفوا في الطبقات . قال :
 « فأول من بلغنى صنف فى ذلك الإمام أبو حفص عمر بن على المطوّعى ، المتوفى نحو ٤٤٠ هـ صنف للإمام أبى الطيب سهل الصُّعلوكى كتابا سماه « المُذْهَب فى ذكر شيوخ المذهب » .

ثم ألف القاضى أبو الطيب الطبرى المتوفى سنة ٤٥٠ هـ مختصرا ، ذكر فيه مولد الشافعى رضى الله عنه ، وعدّ فى آخره جماعة من الأصحاب .

ثم ألف الإمام أبو عاصم العبّادى المتوفى سنة ٤٥٨ هـ كتابه .

ثم ألف شيخ الإسلام أبو إسحاق الشيرازى المتوفى سنة ٤٧٦ هـ وهو غير مقتصر على الشافعيين ، بل فيه الشافعية ، والمالكية ، والحنفية ، والحنابلة ، والظاهرية .

ثم ألف الحافظ أبو محمد عبد الله بن يوسف الجرجانى المتوفى سنة ٤٨٩ هـ كتابه الطبقات .

ثم ألف القاضى أبو محمد عبد الوهاب بن محمد القاضى الشيرازى المتوفى سنة ٥٠٠ هـ كتاب « تاريخ الفقهاء » .

ثم ألف المحدّث أبو الحسن بن أبى القاسم البيهقى المعروف بفُنْدُق المتوفى سنة ٥٦٥ هـ ، كتابا سماه « وسائل الأملعى فى فضائل الشافعى » .

ثم جمع الشيخ الإمام أبو النجيب السُّهْرَوْرْدِى المتوفى سنة ٥٦٣ هـ مجموعا .

ثم جاء الشيخ ابن الصَّلَاح المتوفى سنة ٦٤٣ هـ فألف كتابه ، ولكن المنية عاجلته والكتاب مسوّد ، فأخذه الإمام أبو زكريا النووى المتوفى سنة ٦٧٦ هـ واختصره وزاد أسامى قليلة جدا ، ومات أيضا وكتابه مسوّد فيبيضه الحافظ أبو الحجاج المِزْزِى ، المتوفى سنة ٧٤٢ هـ .

ثم ألف الشيخ عماد الدين بن باطيش المتوفى سنة ٦٥٥ هـ كتابه .

هذه جهود العلماء قبل ابن السبكي . كما ذكرها .

ومن معاصريه ثم من بعده صنف في الطبقات :

الشيخ جمال الدين عبد الرحيم بن حسن الإسنوي المتوفى سنة ٧٧٢ هـ فرغ من تأليفه سنة ٧٦٩ هـ . ورتب على حروف الاشتهار . ذكر في كل حرف فصلين ، أوله في رجال الشرح الكبير والروضة ، والثاني في الزائد عليهما . ونقل من طبقات التفليسي لموسى عمر ابن بُندار المتوفى سنة ٦٧٢ هـ وهى مجلد ضخمة ألفه قبل الإسنوي^(١) .

ثم صنف الحافظ ابن كثير المتوفى سنة ٧٧٤ هـ^(٢) .

ثم صنف محمد بن الحسن بن عبد الله الحسيني الواسطي المتوفى سنة ٧٧٦ هـ كتابه « المطالب العلية في مناقب الشافعية »^(٣) .

ومن رجال القرن الثامن أيضا صنف شمس الدين محمد بن عبد الرحمن العثماني قاضى صفد ، المتوفى سنة ٧٨٠ هـ^(٤) .

ثم ألف القاضى شرف الدين أبو عبد الله محمد بن قطب الدين عبد الرحمن ، المتوفى في حدود سنة ٨٠٠ هـ كتابه « الكافي في معرفة علماء مذهب الشافعى »^(٥) .

وصنف سراج الدين عمر بن على المعروف بابن الملقن المتوفى سنة ٨٠٤ هـ كتابا سماه « العقد المذهب في طبقات حملة المذهب » من زمن الشافعى ، بعبارات محررة إلى سنة ٨٧٠ هـ . رتب على ستة وثلاثين طبقة^(٦) .

(١) كشف الظنون ١١٠١ ، الدرر الكامنة ٣٥٤/٢ .

(٢) كشف الظنون ١١٠١ ، الدرر الكامنة ٣٧٣/١ .

(٣) فهرس مخطوطات جامعة الدول العربية . قسم التاريخ .

(٤) كشف الظنون ١١٠١ .

(٥) فهرس التاريخ بدار الكتب المصرية .

(٦) كشف الظنون ١١٠١ ، الضوء اللامع ١٠١/٦ ، فهرس دار الكتب المصرية .

ثم ألف الفيروزابادى صاحب القاموس ، المتوفى سنة ٨١٧ هـ « المرقاة الأرفعية »^(١) .
وجمع الشيخ شهاب الدين بن أرسلان بن أحمد بن حسين الشافعى الرملى ، المتوفى سنة ٨٤٤ هـ^(٢) .

ثم صنف القاضى تقى الدين أبو بكر بن أحمد بن شُهبة الدمشقى الأسدى ، المتوفى سنة ٨٥١ هـ مصنفًا رتبته على تسع وعشرين طبقة. وعليه ذيل للشريف عز الدين حمزة بن أحمد الدمشقى الحسينى الشافعى المتوفى سنة ٨٧٤ هـ^(٣) .

ثم ألف رضى الدين محمد بن أحمد بن عبد الله الغزى العامرى الشافعى ، المتوفى سنة ٨٦٤ هـ كتابه « بهجة الناظرين إلى تراجم المتأخرين ، من الشافعية البارعين »^(٤) .

وفى أخريات القرن التاسع ألف القاضى قطب الدين محمد بن محمد الخيضرى المتوفى سنة ٨٩٤ هـ كتابا سماه « اللع الألمعية لأعيان الشافعية »^(٥) .

وقد جمع كمال الدين أبو المعالى محمد بن أحمد الشافعى المقدسى المتوفى سنة ٩٠٦ هـ تراجم لبعض فقهاء الشافعية فى ست وركات^(٦) .

ثم صنف أبو بكر بن هداية الله الحسينى الملقب بالمصنف ، المتوفى سنة ١٠١٤ هـ كتابا فى طبقات الشافعية طبع ضمن مجموعة ببغداد ١٣٥٦ هـ .

(١) كشف الظنون ١١٠١ .

(٢) كشف الظنون ١١٠١ ، الضوء اللامع ٢٨٢/١ .

(٣) كشف الظنون ١١٠١ ، الضوء اللامع ٢١/١١ ، ١٦٣/٣ ، فهرس دار الكتب المصرية

(٤) فهرس جامعة الدول العربية .

(٥) كشف الظنون ١١٠١ ، الضوء اللامع ١١٧/٩ - ١٢٤ . قال السخاوى فى ترجمته للقاضى قطب الدين : وقد استعار من شيخنا [ابن حجر] نسخته بالطبقات الوسطى لابن السبكي ، فجرد ما بها من الحواشى المشتملة على تراجم مستقلة وزيادات فى أثناء التراجم مما جردته أيضا فى مجلد ، ثم ضم ذلك لتصنيف له على الحروف ، لخص فيه طبقات ابن السبكي مع زوائد حصلها بالمطالعة . وانظر أيضًا الإعلان بالتبويب ص ١٨٨ .

(٦) فهرس جامعة الدول العربية .

وآخر من نعرف ألف في طبقات الشافعية شيخ الإسلام عبد الله الشرقاوى ، المتوفى سنة ١٢٢٧ هـ . جمع في كتابه تراجم متأخرى الشافعية من سنة ٩٠٠ إلى ١١٢١ هـ^(١) .

(٦)

هذه هي جهود العلماء في الترجمة لأعلام الشافعية ، ولكن ابن السبكي حين ألف كتابه هذا جاء إلينا بعمل فريد ، وقدم إلى الناس إحدى الموسوعات العربية ، ينهل منها كل من يطلب المعرفة ، وينشد فيها كل متخصص حاجته .

ولم يكن تأليفه الطبقات فكرة عابرة ، أرقته حيناً فسجلها في كتاب ، وإنما كان يعد لذلك - كما أخبرنا في المقدمة^(٢) - منذ صباه ، كلف بأخبار العلماء فجعل يجمعها ، وكلمة وقع نظره على شاردة قيدها ، أو حادثة أمعن النظر فيها ، أو على مناظرة شهدتها وحكم فيها ، حتى إذا استقام عوده ، ونضجت ثقافته ، وكثرت تجاربه ، وملك زمام القول أفرغ هذا كله في كتابه الطبقات . ماراً بك على رياض الفكر ، ومواكب الشعر ، ومجالس العلماء « فبينما الفقيه منها في عويص الفروع المشتبكة ، إذا به في رياض من آداب تحرك فاقد الحركة . وبينما الأديب في نشر حلل مطرزة ، إذا به في مواعظ وحكم موجزة . وبينما المرید في سلوك الطريق ، إذا به في أحاديث مُسنّدة يعلم أنها باب التوفيق . وبينما المؤرخ في حكايات انقضى زمانها ، إذا به قد عبر على تراجم يعز على المنقّب وجدانها »^(٣) .

والطبقات الكبرى تشتمل على مقدمة ، وسبع طبقات ، يترجم في كل طبقة منها لأعلام مائة سنة . أما المقدمة فقد استوفى فيها ابن السبكي مباحث عدة ، وناقش مسائل في الحديث ، ونقد الرجال ، والنحو ، بل إنه ليعرض لقضايا علم الكلام ، فيقدمها

(١) فهرس دار الكتب المصرية .

(٢) صفحة ٢٠٦ من نشرتنا هذه .

(٣) صفحة ٢٠٩ .

وبيّن الآراء ، فى استقصاء شامل وسرد منهجى ، ثم ينتصر لرأيه ورأى الأشاعرة آخر الأمر .

ولم ينس تاج الدين أن يناقش آراء العلماء فى رواية الشعر ، وإنشاده ، وسماعه ، وأن يذكر ما بلغه مسندا من الشعر الذى أنشد بين يدى رسول الله ﷺ ، وما روى عن صحابته ، وعلماء الأمة وأخبارها ، وما روى عن الشافعى نفسه ، من إنشاء الشعر وإنشاده وسماعه .

وقد حرص أبو نصر على أن يذكر فى المقدمة طبقات الرواة ، الذين عنهم أخذ ، وبطريقهم أسند .

كما هزته الأحداث الدامية التى شهدتها العالم الإسلامى ، إبان الزحف المغولى الغاشم ، فذكر حوادثها مختصرة ، على النحو الذى يحتاج إليه الفقيه ، وينشده غير المتخصص .

وقد نهج ابن السبكى فى مقدمته هذه نهجا فريدا ، حيث لم يستطرد فى افتتاحيته فيفتتح ببسم الله ، ويثنى بحمد الله ، والصلاة على رسوله ﷺ ، وذكر الشهادتين ، وإنما كان يتمهل فى ذكر ذلك كله . فقد بدأ كتابه ببسم الله وحده ، تيمنا وتبركا ، ثم روى بسنده كل ما يتصل بافتتاح الأعمال من أحاديث ، وناقش كل ما عرضت له هذه النصوص من قضايا ، حتى إذا اطمأن إلى أن القول قد تم وكمل ، قال : « فبسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذى رفع طبقات العلماء على هام الملوك وتاجها ... »^(١) . ثم روى بعد ذلك بسنده الأحاديث التى تتعلق بالشهادتين ، واستوفى مباحثهما ، حتى تسنى له فيما بعد أن يقول « فنشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة آمنة من اختلال الأذهان واختلاجها ... ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله ، إمام التقوى وضياء سراجها ... »^(٢) .

(١) صفحة ٢٤ .

(٢) صفحة ١٥٢ .

ثم يروى بعد ذلك بسنده الأحاديث التي تحض على الصلاة على النبي ﷺ وبين ثواب فعلها ، وإثم تركها ، ثم يقول : « فصلى الله على سيدنا محمد وآله ، وأصحابه ، وسائر الأنبياء والمرسلين ، القائمين بمداواة القلوب ... »^(١)

ثم يروى بعد ذلك بسنده أحاديث فضل قریش وعلمائها ، ويخوض في بحوث شتى حول الإمامة السياسية ، وإمامة العلماء ، ويتحدث عن مكانة الشافعي ونسبه ، ثم عن الأئمة الذين يبعثهم الله على رأس كل مائة سنة ، فيجددون لهذه الأمة أمر دينها ، ثم يقول : « ورضى الله عن إمامنا المطلبى الشافعي ، شافى العي عن الكلمات باعتدال مزاجها ... »^(٢) .

ولا يستطيع ابن السبكي أن يقول : « أما بعد » ويشرح سبب تأليفه للكتاب ، ونهجه في وضعه إلا إذا ذكر بسنده من الأحاديث والآثار ما يتعلق بـ « أما بعد » وأول من قالها . أما الطبقات فقد كسرهما تاج الدين على سبعة أجزاء ، وعقد لأهل كل مائة سنة طبقة ، وهو يرى أن كتابه هذا : « كتاب حديث ، وفقه ، وتاريخ ، وأدب ، ومجموع فوائد تنسل إليه الرغبات من كل حذب ، نذكر فيه ترجمة الرجل مستوفاة ، على طريقة المحدثين والأدبا ، ونورد نكتا تسحر عقول الألبا »^(٣) .

وقد جرى ابن السبكي في ترجمته رجال الطبقات على نهج قويم ، يدل على بصر بتاريخ المترجم ، وإحاطة بالفنون التي أجادها ، ووعي لدقائق الأمور التي أثارها ، وبصر بالجديد الذي أضافه إلى العلم ، والمسائل التي تفرّد بها في فنه ، يقول تاج الدين بعد أن ذكر سبيله هذا : « وكل هذا وراء مقصودنا الأعظم فيه ، ومرادنا الأهم الذي لا يقوم به سهر الليل ولا يوفيه ، إذ أعظم مقاصدنا أننا عند الفراغ من ترجمة كل رجل ، أو في أثنائها

(١) صفحة ١٨٩ .

(٢) صفحة ٢٠٣ .

(٣) صفحة ٢٠٧ .

ننظر ، فإن كان من المشهورين الذين طارت تصانيفهم فملأت الأفطار ، ودارت الدنيا ولم تكتف بمصر من الأمصار ، نظرنا فإن وجدنا له تصنيفا غريبا ، استخرجنا منه فوائد ، أو مسائل غريبة ، أو وجوها في المذهب واهية ، وكتبناها . وإلا فنذكر وجها غريبا ذكر عنه ، أو مقالة غريبة ذهب إليها ، وشذّبها عن الأصحاب . وإن كان من المقلّين أعملنا جهدنا في حكاية شيء من ذلك عنه . وربما غلب الفقه على إنسان ولم نر عنه في الفقه مستغربا ، فنقلنا عنه فائدة غير فقهية : إما حديثية ، أو غيرها . وربما غلب عليه الحديث ، أو غيره من العلوم سوى الفقه ، فأعملنا جهدنا في نقل شيء من الفقه ، أو ما يناسبه عنه . فإن لم نجد له شيئا لم نخل ترجمته من حكاية ، أو شعر ، أو فائدة تستغرب ^(١) .

وقد أدرك تاج الدين صعوبة هذا المنهج ، ومشقته على القارئ ؛ ولهذا فهو يعتذر عن احتفاله بالأسانيد ، وحرصه على نقل المناظرات والمجادلات كاملة ، والاستطراد إن احتاج الأمر إلى الاستطراد ، يعتذر عن ذلك كله بأنه جعل كتابه كافيا لمن يقرؤه ، مغنيا له عن النظر في كثير من المصادر .

ولم يستطع ابن السبكي أن يفى بوعده هذا في كل ترجمة ، فهو أحيانا يذكر اسم المترجم ، ثم يسكت عنه ، وأحيانا أخرى يذكر ترجمته ناقصة ، بل إن في الكتاب مباحث لم يكملها المؤلف ، ربما كان يرجئ ذلك كله إلى فسحة من الوقت ، ولكنه لم يُنسأ له في الأجل ، حيث مات في الرابعة والأربعين .

وقد اعتمد تاج الدين في ترتيبه كل طبقة على حروف المعجم ، وبدأ بذكر الأحمدين ثم محمد بن ، تيمنا وتبركا ، وكذلك فعل في الطبقات الوسطى والصغرى ، حيث رتب المترجمين على حروف المعجم مع البدء أيضا بالأحمدين والمحمديين ، ولكنه أغفل الترتيب الزمني للطبقات ، واكتفى بالترتيب على حروف المعجم ، ما عدا من لقي الشافعي منهم ، فقد أفرد هؤلاء بطبقة ، وذكرهم في صدر الكتاب ، مرتبين على حروف المعجم .

(١) صفحة ٢٠٨ .

وهنا تثار مشكلة السبق في تأليف الطبقات الثلاث ، بأيها بدأ تاج الدين ؟

يرى الأستاذ محمد الصادق حسين في كتابه « البيت السبكي » : أن تاج الدين قد تدرج في وضع طبقاته ، من المختصر إلى المطول ، لا من المطول إلى المختصر . وينقض على واضعي فهرس دار الكتب قولهم : إن المؤلف قد اختصر « الطبقات الوسطى » من « الكبرى » ثم اختصر « الطبقات الصغرى » من « الوسطى » ويعلق على هذا بقوله : « وهذا وهم ، فالثابت أن الطبقات الوسطى ألفت قبل الكبرى ؛ لأننا نجد في جزء من الوسطى مخطوط : قال المؤلف رحمه الله عليه : فرغت منه في ليلة الثالث والعشرين من ذى القعدة ، سنة أربع وخمسين وسبعمائة ، بدمشق المحروسة ، عمرها الله تعالى . اهـ ، والطبقات الكبرى إنما فرغ من تأليفها سنة ٧٦٦ هـ ، كما جاء في ذيل كثير من الأجزاء ، وكما ترى في إحدى القطع الثلاث (في صدر هذا البحث) التي يقال إنها بخط تاج الدين . وثابت أن الطبقات الوسطى ألفت وأبو المؤلف من الأحياء ، ففي الطبقات الكبرى أن على ابن عبد الكافي كتب بخطه على ترجمته في الطبقات الوسطى عبارة اختتمها بقوله : كتبه على السبكي في يوم السبت ، مستهل جمادى الآخرة سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة . اهـ ، لكن الطبقات الكبرى ألفت بعد وفاة والد المؤلف ؛ ففي غير موضع منها يذكر المؤلف والده ويترحم عليه ، فلا نزاع إذن في أن الوسطى ألفت قبل الكبرى . ولم يتيسر لي الاطلاع على الصغرى لمعرفة تاريخ تأليفها إن وجد ما يدل عليه ، لكنني أرجح أنها ألفت قبل الوسطى » .

وقد تيسر لنا الاطلاع على نسخة من الطبقات الصغرى محفوظة بدار الكتب المصرية ، جاء بأولها : « هذا مختصر لطيف ، في تاريخ الفقهاء الشافعيين ، أصحاب الإمام أبى عبد الله محمد بن إدريس الشافعى ، رضى الله عنه ، جمعنا فيه ما أوردناه في كتابنا الكبير من الأسماء ، واقتصرنا فيه على نبذ يسيرة ، أعان الله على إكماله ، بمنه وكرمه وأفضاله » ، وفي آخرها : « هذا آخر المختصر الأصغر ، من كتابنا طبقات الشافعيين ،

وهو مع التناهي في الاختصار والاقتصار ، جليل الفائدة ، جميل العائدة ، ولا يقدر على جمعه إلا من جمع من كتابنا الكبير والوسيط ، وأضافهما إلى كتبه « ، وفي آخرها أيضا : « قال المؤلف رحمه الله : كتبه مؤلفه عبد الوهاب بن علي السبكي ، كان الله له ، واتفق الفراغ منه صبيحة يوم الأحد ، سابع شعبان المكرم ، سنة ٧٥٦ هـ بدمشق » .

وقد رجعنا إلى نسخة من الطبقات الوسطى محفوظة بدار الكتب المصرية ، تبدأ بحرف الطاء ، وسجلنا منها هذه الملاحظات :

١ - في آخر ترجمة القفال الصغير - الطبقة الرابعة - يقول : « وقد أسندنا حديثه في الطبقات الكبرى » .

ب - في آخر ترجمة عبد الله بن مروان - الطبقة السابعة - يقول : « أسندنا حديثه في الطبقات الكبرى » .

ج - في أثناء ترجمة منصور بن محمد بن عبد الجبار - الطبقة الرابعة - يقول : « أسندنا حديثه في الطبقات الكبرى » وكذلك قال في ترجمة يعيش بن صدقة - الطبقة الخامسة - .

د - في أثناء ترجمة القاسم بن محمد الشاشي ، صاحب التقريب - الطبقة الثالثة - يقول : « وقد وقفت على الأول والثاني (من كتاب التقريب) وهما إلى أثناء الحج ، ولعلنا نورد منهما شيئا من المستغربات في الطبقات الكبرى » .

هـ - في آخر الطبقات الوسطى ، في باب الكنى والنسب ، يقول : « وببيت السمعاني بيت كبير ... ومن لم يسبق ذكره منهم محمد بن الحافظ أبي سعيد عبد الكريم ، وإنما أغفلنا ذكره نسيانا ، وكان يكنى أبا زيد ، وكان واعظا ... مولده سنة أربع وخمسين ، وتوفي بعد سنة سبع عشرة وستائة » .

و - وفي آخرها يقول : « وإلى هنا انتهى هذا المختصر . قال المؤلف رحمه الله عليه : فرغت منه في ليلة الثالث والعشرين من ذي القعدة ، سنة أربع وخمسين وسبعمائة ، بدمشق المحروسة » .

كما تيسر لنا الاطلاع على نسخة كاملة من الطبقات الوسطى ، محفوظة بجامعة الدول العربية ، يذكر المؤلف في مقدمتها أنه ألف كتابا في طبقات الفقهاء الشافعية مبسوطا حافلا ، حاويا لما يراد منه .

ويذكر أيضا - بعد انتهائه من إسناد أحاديث الافتتاح والحمدلة والشهادتين - يقول : « وفي الباب أحاديث أخر كثيرة ، سقناها مع إشباع الكلام عليها في الطبقات الكبرى » .

ويذكر أيضا - بعد إسناده أحاديث أما بعد - قوله : « وقد جمعنا في أما بعد أشياء جمّة في الطبقات الكبرى » .

ويبدو للوهلة الأولى أن هذه النقول تخلق من الترتيب الزمني لتأليف الطبقات مشكلة تاريخية ، ولكن ابن السبكي يحسم ذلك ، بقوله في مقدمة الطبقات الوسطى - المحفوظة بجامعة الدول العربية - : « فأعملنا الهمة في كتابنا ، حتى جاء على الوجه الذى شرحناه ، إلا أنى لِمَا التزمنا فيه من ذكر الغرائب ، لم يمكنى إخراجه من يدي في هذا الزمان ؛ لأنه كل يوم يتجدد فيه استفادة ما لم يكن يعرفه ، فيحتاج إلى كتابته ، وأيضا فبقيت تراجم كثيرة نأمل تحصيلها وإيداعها فيه ، ومعلوم أن في إخراجه من اليد إلى من يشب عليه ، وينسخه أحد أمرين : إما الكف عن كتابة ما تحدث بعد ذلك معرفته ، وإما إتلاف النسخ على أصحابها بالزيادة والنقصان وكثرة التغيير ، فعمدت إلى ذلك الكتاب ، واختصرته اختصارا ، يأتي بالتراجم على وجهها لا يدع منها اسما ، فإن أنت رأيت اسما في ذلك الكتاب غير مذكور هنا ، فاعلم أنه مما زيد فيه ، بعد خروج هذا المختصر من أيدينا » . ويتضح من هذا أن ابن السبكي قد بدأ بإخراج طبقات الشافعيين في كتابه « الطبقات الوسطى » وكان في أثناء ذلك يعمل لإصدار موسوعته في هذا الفن ، التى عرفت باسم « الطبقات الكبرى » .

وإذاً فقد اتجه تاج الدين إلى الفراغ من كتابه « الطبقات الوسطى » ليخرجه إلى الناس ، تاركا المسائل المتعلقة لكتابه الكبير « الطبقات الكبرى » ولهذا لم يتيسر له أن يصل بالطبقات الكبرى إلى الكمال فيما كان يؤمله ، فترك بعض الثغرات في كتابه : مسائل لم يكتمل القول فيها ، وترجمات لم يهتد إلى كل أخبارها ، وأسماء لم يعثر على أخبار تميزها ، وتحدد معالمها .

وربما كان ابن السبكي يرجع إلى طبقاته الوسطى بالصقل والتهديب ، فلو رجعنا إلى الفقرة « هـ » من ملاحظتنا على نسخة دار الكتب من « الطبقات الوسطى » ورجعنا إلى الطبقة السادسة من « الطبقات الكبرى » فلن نجد لمحمد السمعي ذكرًا فيها .

كذلك نلاحظ أن بعض التراجم الناقصة في الكبرى كاملة في الوسطى ، ففي ترجمة طلحة بن الحسين - الطبقة الخامسة - نجده لا يذكر إلا اسمه ، أما في الطبقات الوسطى فإنه يقول : « طلحة بن الحسين أبو محمد الإسفرائيني [المهرجاني ، مات في دهليز الحمام فجأة ، وذلك في خامس ذى الحجة ، سنة ست وأربعين وخمسمائة] » .

ومن هنا كانت الطبقات الوسطى محل إجلال العلماء ، وقد اعتمدها ابن حجر ، واستعارها منه القاضي قطب الدين محمد بن محمد الخيضرى المتوفى سنة ٨٩٤ هـ وأفاد منها في تأليف مصنفه عن الشافعية^(١) .

ولعله اختصر طبقاته الصغرى ، من الطبقات الوسطى ، ومن الطبقات الكبرى ، أثناء عمله فيها وقبل الفراغ منها .

* * *

(١) الضوء اللامع ١١٧/٩ - ١٢٤ .

وقد اعتمدنا في نشر هذا الكتاب وتحقيقه على :

١ - نسخة محفوظة بمعهد المخطوطات - جامعة الدول العربية - مصورة عن مكتبة البديري بالقدس ، وهي مكتوبة بخط نسخ جيد ، غير مرتبة ، وأوراقها مضطربة ، وبها خروم ، وقد تملكها بعض العلماء ، منهم الحافظ ابن حجر وغيره ، وهي في ٥٠٠ ورقة ومقاسها ١٩ × ٢٨ سم .

وقد تفحصنا أوراقها ، وأعدنا ترتيبها ، فسلم لنا قدر صالح منها ، يشتمل على المقدمة ، والطبقات : الأولى ، والثانية ، وبها خروم يسيرة ، والثالثة كاملة ، وبعض لوحات من الرابعة ، والسادسة ، وبها خروم ، والسابعة كاملة .

وكان لتمامك بعض العلماء لها فضل كبير ، في دقة المقابلة ، حيث عورضت بنسخة المصنف والضبط بالقلم في بعض الأماكن . وخلال عملنا في المقدمة اتضحت لنا ملاحظات قيمة تجدها في صفحات : ٢٠ السطر ٢٠ ، ٦٨ السطر ١٥ ، ٧٨ السطر ١٨ ، ٨٢ السطر ١٨ ، ١٤٧ السطر ١٩ ، ١٨٧ السطر ٢٠ ، ١٩٧ السطر ٢٢ ، ٢٥٣ السطر ١٩ . وقد رمزنا لهذه النسخة بالرمز : « ج » .

٢ - نسخة محفوظة بدار الكتب المصرية ، تقع في ٤٥٨ ورقة ، مقاسها ٣٠ × ٢٠ سم بأولها فهرس بأسماء المترجمين والحوادث المهمة ، وبآخرها أدعية مأثورة للمصنف ، وقد تمت كتابتها في يوم الأربعاء السادس من شهر رجب سنة ١١٢٩ هـ ، وهي نسخة كاملة ، نسخها غير دقيق ، وبها سقط في بعض المواضع ، وقد لاحظنا أن بعض هذا السقط مثبت في الأصل المطبوع وفي صلب : ج ، والبعض الآخر ، في المطبوع وعلى هامش : ج . وهذه النسخة توافق : ج غالبا ، عند اختلاف النسخ . وقد رمزنا لها بالرمز : « د » .

وفى بداية النسختين ج ، د نجد هذا الافتتاح :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، رب يسر وأعن ، قال سيدنا ، العبد الفقير إلى الله تعالى ، قاضى القضاة ، حاكم الحكام ، شيخ الإسلام ، تاج الدين ، مفتى فرق المسلمين ، حجة الحفاظ والمفسرين ، سيف النظار والمتكلمين ، ناصر السنة ، مؤيد الملة ، أحد المجتهدين ، خطيب الخطباء المسلمين ، قدوة الفصحاء والبلغاء المفوهين ، أبو نصر عبد الوهاب بن سيدنا العبد الفقير إلى الله تعالى ، قاضى القضاة ، حاكم الحكام ، شيخ الإسلام ، تقى الدين ، أوجد المجتهدين أبى الحسن على بن سيدنا العبد الفقير إلى الله تعالى ، قاضى القضاة ، حاكم الحكام ، زين الدين أبى محمد عبد الكافي بن تمام الأنصارى الخزرجى السبكى الشافعى ، امتع الله الإسلام وأهله بطول حياته ، وأعاد عليهم من عوارفه وبركاته ، آمين » .

وقد طبع هذا الكتاب طبعة وحيدة سنة ١٣٢٤ هـ بالمطبعة الحسينية بمصر ، طبعة غاية فى النكر والرداءة ، شاع فيها التصحيف والتحريف ولم يذكر ناشرها الأصل الذى أخذت عنه ؛ ولذلك فقد أهملنا ذكر كثير من الفروق بينها وبين النسخ الأخرى ، ولم نذكر من الفروق إلا ما كان لذكره وجه .

وفى أصل الكتاب بياض فى بعض المواضع ، وتكرار لبعض التراجم ، ولبعض الفقرات ، كذلك نجد خلطا فى ذكر التراجم ، فقد ترجم ابن السبكى للفضل بن محمد ابن الحسين فى الطبقة الثالثة ، ثم عاد فترجمه فى الطبقة الرابعة ، ولعله تردد فى ذكره فى إحدى الطبقتين ، فوضعه فيهما لعدم وثوقه . كذلك نجد تكرارا لخاتمة الطبقة الأولى ؛ حيث ذكر هذه الخاتمة قبل ذكره الفوائد والمسائل عن يونس بن عبد الأعلى ، ثم عاد فختم الطبقة بها .

وكل هذه الهنات مشتركة بين الأصول ؛ المطبوع منها والمخطوط ، مما يدل على أن المؤلف

لقى ربه قبل أن يعود إلى مصنفه فيسد الخلل ، ويكمل النقص ، ونحن الآن بصدد تصوير نسخة كاملة من « الطبقات الوسطى » محفوظة بجامعة الدول العربية ، للاستفادة بها في تكميل هذا النقص ، ورتق هذا الخرق .

وفي دار الكتب المصرية قطعة من الطبقات الكبرى يقال إنها بخط المصنف ، وتشتمل على بعض التراجم .

وقد أخذنا نفوسنا عند العمل في هذا الكتاب ، بمضاعفة الجهد ، وبذل كل ما تحتمله الطاقة في ضبط نصوصه وأعلامه ، وتوثيق نقوله وشواهد ، وتخريج أحاديثه وأبياته . مع الحرص على سلامة النص ، وسهولة الرجوع إليه ، ويسر الاستفادة منه ؛ ولذلك فقد انتوينا أن نلحق بالكتاب فهرس كاشفة ، تدل على أعلامه وأماكنه ، وأبياته ، ورجزه ، وأمثاله ، وآيات القرآن ، وأحاديث الرسول ، والكتب التي أورد ذكرها المؤلف ، وسنضيف إلى كل ذلك - إن شاء الله - كشافا بمسائل العلوم والفنون التي احتفل بها المصنف ، وملاً بها كتابه ، وقد دفعنا إلى هذا الجهد المضاعف إيماننا بالمكانة العظيمة التي يحتلها هذا الكتاب في المكتبة العربية ، وحرصنا على أن نقدمه لجمهرة المثقفين ، ناضج الثمار ، داني القطاف .

ولا يسعنا في هذا المكان إلا أن نتقدم بالشكر إلى العلماء الأجلاء ، الذين أفدنا من توجيهاتهم .

وإلى الأستاذ فؤاد سيد ، على ما قدمه لنا من نصح كريم ، وعون مشكور .
وإلى الأستاذ محمد رشاد عبد المطلب ، على اهتمامه بإخراج هذا الكتاب ، وحرصه على أن يقدم لنا ما يعين على نشره وإتمامه .

* * *

ونسأل الله الكريم أن يسدد خطانا في سبيل هذا العمل العظيم ، وأن يعين على إتمامه كما
أعان على البدء فيه ، وندعوه أن يربط على قلوبنا فنمضى فيه مسددين موفقين ، إنه نعم
المولى ونعم النصير .

غرة رمضان المبارك ١٣٨٣ هـ
القاهرة في : ١٦ يناير سنة ١٩٦٤ م

عبد الفتاح محمد الحلو ، محمود محمد الطناحي

مصادر الترجمة :

- البداية والنهاية لابن كثير (٢٩٥/١٤ ، ٢٩٦ ، ٢٩٨ ، ٣٠٣ ، ٣٠٦ ، ٣١٠ ، ٣١٦ ، ٣١٨)
- البيت السبكي للأستاذ محمد الصادق حسين .
- تاج العروس للزبيدي (س ب ك) .
- تاريخ الأدب العربي لبروكلمان (٢ : ١٠٨ ، ملحق ٢ : ١٠٥) .
- حسن المحاضرة للسيوطي (١ : ١٤٨) طبع مصر .
- الدارس في تاريخ المدارس للنعمي (١ : ٣٧ ، ٣٨ ، ٢٢٣ ، ٢٤٠ ، ٤٥٨ ، ٤٦٣) .
- الدرر الكامنة لابن حجر (٢ : ٤٢٥ - ٤٢٨) .
- درة الأسلاك في دولة الأملاك لابن حبيب (٣ لوحة ٢٤) مصور بدار الكتب .
- شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (٦ : ٢٢١ ، ٢٢٢) .
- فهرس جامعة الدول العربية (التاريخ) .
- فهرس دارالكتب المصرية (التاريخ) .
- فهرس الفهارس للكتاني (٢ : ٣٧٢ ، ٣٧٣) .
- كشف الظنون (١٠٠ ، ١٥٠ ، ٣٩٩ ، ٥٠٧ ، ٥٩٥ ، ٨٧٦ ، ١١٠١ ، ١١٥٧ ، ١٧٤٤ ، ١٨٥٥ ، ١٨٧٩) .
- المنهل الصافي لابن تغري بردي (١ : ٣٦٠) مخطوط بدار الكتب .
- المواعظ والاعتبار للمقريزي (٢ : ٢٧٩) .
- النجوم الزاهرة لابن تغري بردي (١١ : ١٠٨ ، ١٠٩) .

طبقات الشافعية الكبرى

لِإِمامِ الدِّينِ أَبِي نَصْرٍ عَبْدِ الوَهَّابِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ عَبْدِ الكافي السُّبُكِيِّ

٧٢٧ - ٧٧١ هـ

تحقيق

الدكتور محمود محمد الطناحي الدكتور عبد القنات محمد باحلو

الجزء الأول

طبعة مصححة منقحة

مجتمعة الفهارس

الطبعة الأولى
في دار إحياء الكتب العربية
١٣٨٣ - ١٣٩٦ هـ = ١٩٦٤ - ١٩٧٦ م

الطبعة الثانية
في هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان
١٤١٣ هـ = ١٩٩٢ م

جميع الحقوق محفوظة

المكتب : ٤ ش ترعة الزمر - المهندسين - جيزة

٣٤٥٢٥٧٩ - فاكس ٣٤٥١٧٥٦

المطبعة : ٦ ، ٢ ش عبد الفتاح الطويل

أرض اللواء - ٣٤٥٢٩٦٣

ص . ب ٦٣ إمبابة

رقم الإيداع ٥٨١٨ / ١٩٩٢ م
I.S.B.N: 977 - 256 - 087 - 9

هجر

للطباعة والنشر والتوزيع

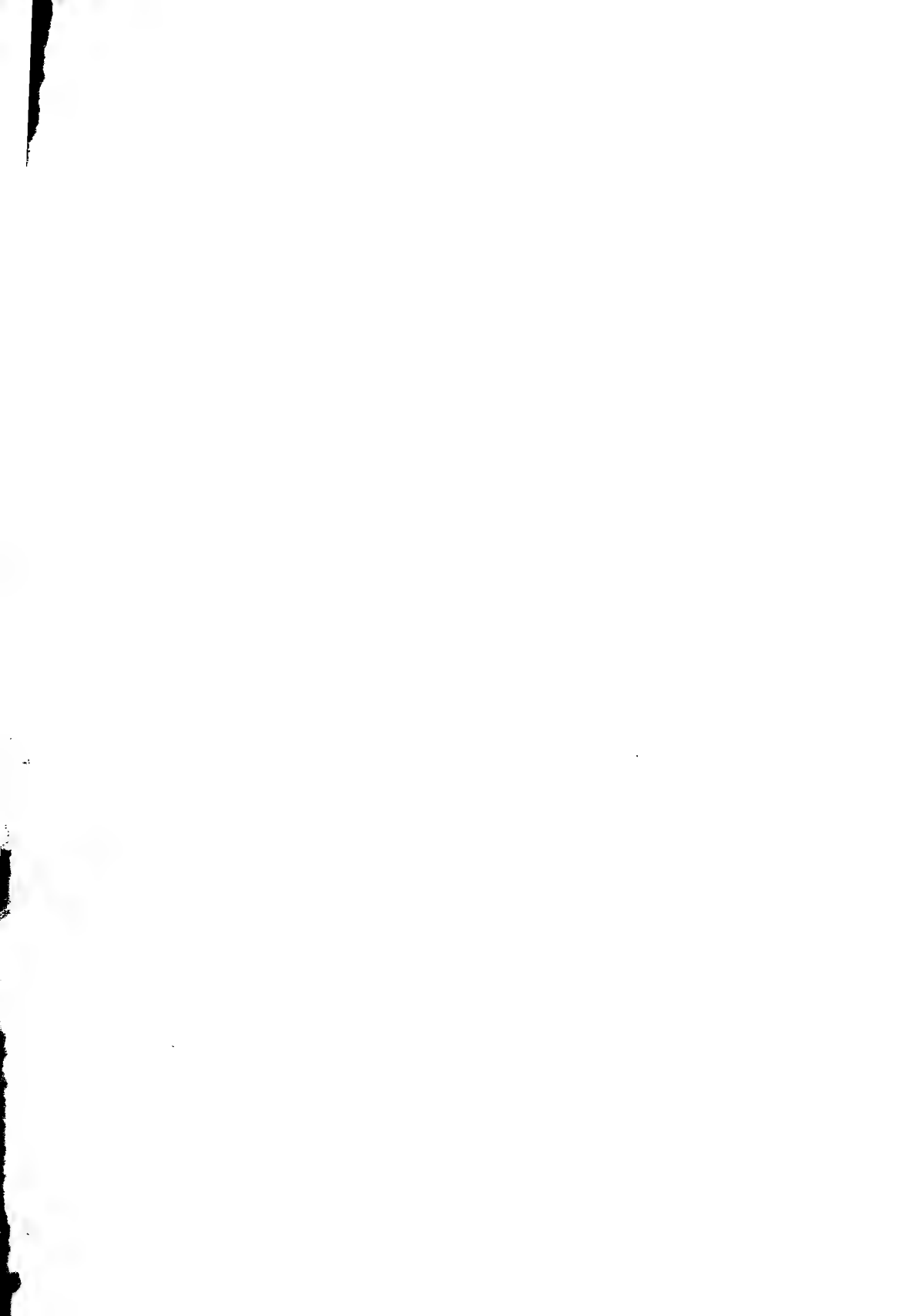
المكتب : ٤ ش ترعة الزمر - المهندسين - جيزة

☎ ٣٤٥٢٥٧٩ - فاكس ٣٤٥١٧٥٦

الطبعة : ٢ ، ٦ ش عبد الفتاح الطويل

أرض اللواء - ☎ ٣٤٥٢٩٦٣

ص . ب ٦٣ إمبابة



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء وسيد المرسلين .
اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحابته أجمعين ، ومن دعا بدعوته
واهتدى بهديه إلى يوم الدين .

وبعد :

فهذا كتاب يضعه مصنفو العلوم في فنّ التراجم والطبقات ، ويضعه النظر الصحيح في
المكتبة العربية كلّها ؛ إذ كان مؤلفه ، رحمه الله ، قد أداره على علوم الشريعة واللغة والأدب
جميعاً ، فهو لا يكاد ينتهي من ترجمة الرجل على رَسْمِها المعروف ، حتى يخلُص إلى مسائل من
علم الرجل وفقهه ، تُفضي به إلى استطرادات ومُدْاخلات كثيرة تكاد تأتي على جمهور علوم
العربية ، ويظهر لك هذا في مقدمته التي أبان فيها عن منهجه^(١) ، ويظهر لك أيضاً في فهرس
العلوم والفنون التي صنعناها وجمعناها فيها مانثره المؤلف خلال التراجم ، وتراه ثالثاً في تلك
التراجم المطوّلة لبعض الأعلام ، وهي تراجمُ توشك أن تكون كتباً مستقلةً .
وقد ساقَت إلينا المقاديرُ هذا الكتاب ونحن في عُنفوان الشباب وقُوّة الصبّ ، فأعطانا
وأعطيناه : أعطانا معرفةً بكثير من الكتب العربية ؛ صغارها وكبارها ، وقد أسلمتنا هذه
الكتب ، بعضها إلى بعض ، فسلّكنا دُرُوبها ، وعرفنا تاريخ أمتنا ، ووقفنا على مناهج أهل
العلم في حضارتنا . وأعطيناه حماسة الشباب وصبره وجلده ، فأخلصنا له أيّامنا ، ولم نُشغل
عنه بشيءٍ آخر ممّا يحقق الشهرة السريعة .

ولقد صدر الجزء الأول من الكتاب سنة ١٣٨٣ هـ = ١٩٦٤ م ، فتقبّله الناس بقبول
حسن ، وبالعوا في الثناء علينا ، والاحتفال بعملنا . والثناء حين يأتي في سنّ الشباب يشدّ العزم
ويُلْهِبُ القُوَى ، وهكذا جرى عملنا في بقية الأجزاء ، نُجود ونُحسن ما استطعنا إلى ذلك
سبيلاً .

على أن هذا الكتاب قد واثته ظروفٌ حسنة : منها أننا بدأنا العمل به في ذلك الزمان الرّخِيّ
الهنّيء « إذ الناسُ ناسٌ والزمانُ زمانٌ » . فالعلماء متوافرون مستقرّون ، والمكتبات زاخرة ،

(١) انظر الجزء الأول ٢٠٦ - ٢٢٠ .

ومجالس العلم مشهودة ، وديارُهُ ماثُوسَة ، وأهلُ الفُتيا على طَرَف الثُّمام . ومن هذه الظروف المواتية الحسنة عملنا في معهد المخطوطات ، فقد كان عملنا في ذلك المعهد العظيم رافداً واسعاً من روافد العلم والمعرفة ، ثم كان لنا من رُؤاد هذا المعهد ، من كبار العلماء ومن شُدّة العلم عونٌ ونُصح ، أفدنا منهما كثيراً .

وتروح أيام وتجيء أيام ، وتشتد الحاجةُ إلى طبعة ثانية من الكتاب ، فننظر في طبعتنا الأولى فإذا نحن قد سجّلنا على حواشيها شيئاً من التصحيح ، ثم نقرأها بعد أن عَلِمنا ما لم نكن نَعلم ، فتبدو لنا أشياء بعد أشياء ممّا أثَّرت يدُ العَفَلات ، فنُصلحها بما جاءت به القراءات المتجدّدة ، والتجاربُ المستفادة ، وبما جادت به المطابعُ من أصولٍ ومراجعٍ لم تكن متاحةً لأيام الطبعة الأولى ، نذكر منها في باب التراجم خاصّة : سير أعلام النبلاء ، لشمس الدين الذهبي ، شيخ المصنّف ، والتكملة في وفيات الثّقلة ، لركّي الدين المنذرى ، وطبقات الشافعية للإسنوي ، وما ظهر من أجزاء الوافي بالوفيات للصّفدي . ولقد كانت إفادتنا عظيمة من سير أعلام النبلاء وحواشيه بوجه خاصّ . ولقد أفدنا أيضاً من ملاحظات القراء من أهل العلم ^(١) .

ويبقى أن نُشير إلى ما استحدثناه في هذه الطبعة الثانية :

أولاً : حَرَصنا على الالتزام بترقيم صفحات الطبعة الأولى .

ثانياً : جَرَدنا فهرس كل جزء ، وسَلَكناها كلّها في فهرسٍ موحد ، مما صحح كثيراً من الأعلام ، وكشف عن ما بهم علينا في الطبعة الأولى .

ثالثاً : كنّا قد تركنا في الطبعة الأولى فهرسة الجزء الأول ، وهو المشتمل على مقدّمة الكتاب حتى تتبيّن لنا أسانيدُ المؤلّف ، ففهرّسناه وأدْمَجناه في الفهرس العام .

هذا ... وإنا نسأل الله عزّ وجلّ أن يعمّ النفع بهذا الكتاب العظيم بقدر ما بذله فيه مؤلّفه من جهد ، وبقدر ما اجتهدنا في إحياء هذا الجهد .

ولله الحمد في الأولى والآخرة .

المحقّقان

القاهرة في :

١٨ من ذي القعدة ١٤١٢ هـ

١٨ من مايو ١٩٩٢ م

(١) نذكر منهم : أستاذنا العلامة الشيخ عبد الفتاح أبو غنّة - حفظه الله - في (قاعدة في الجرح والتعديل) التي استخرجها من ترجمة « أحمد بن صالح المصري » من الطبقات ، وفيما صحّحه من ترجمة الذهبي ، في الرسالة المسماة (ذكر من يعتمد قوله في الجرح والتعديل) للذهبي التي نشرها مع القاعدة المذكورة بمكتب المطبوعات الإسلامية - حلب ، بيروت - الطبعة الثالثة ١٤٠٠ هـ = ١٩٨٠ م ، وصديقنا الدكتور عبد العظيم الديب ، فقد أمدّنا - أحسن الله إليه وجزاه خيراً - بتصحيحات جيّدة ممّا يتصل بإمام الحرمين الجويني .

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة التحقيق

(للطبعة الأولى)

(١)

يعتبر القرن الثامن الهجرى مرحلة من مراحل النشاط الفكرى ، التى ظهرت فى الدولة الإسلامية عقب الزحف التترى على بلاد الإسلام فى القرنين السادس والسابع ؛ فإن الأهوال العظيمة التى صحت هذا المد ، وما نجم عنها من إهلاك للبشر ، وتخريب للديار وحرق وإغراق للثروة العلمية على يد هؤلاء الهمج نبه جمهرة العلماء العرب ، ودفعهم دفعا إلى تراث آبائهم وأجدادهم ، فعكفوا عليه تحصيلا وفهما ، وتمثلوه علما وفنا ، ثم فرغوا بعد ذلك إلى أقلامهم يسجلونه على نحو جديد ، يدنيه من كل قلب ، ويحبه إلى كل نفس . وكان ذلك إيذانا ببداية عصر الموسوعات العلمية والأدبية ، ولعلنا آنذاك فى سماء الفكر شخصيات فريدة ، من أمثال الذهبى والنويرى والصفدى وابن السبكى ، ثم أتى من بعدهم أمثال ابن حجر والسيوطى .

وعلى الرغم مما اكتنف القرن الثامن من ظلام الحكم المملوكى ومآسيه ، فإن همّة العلماء لم تفتقر ، وكأنما كانوا موكولين بتراث العرب وقد تجمع ما تبقى لديهم من أصوله ، كأنما وكلوا بهذا التراث يحفظونه من الضياع ، ويقونه شر الخطوب وكوارث الحروب ، وظلوا حفاظا على هذه الثروة الفكرية ، يسلمونها من جيل إلى جيل ، حتى أتت إلينا غنية موفورة ، تقدم بعض العزاء عن ما فقدناه من أصول الفكر العربى ، التى ذهب بها الغزو التترى ، وأتت على كثير منها الحروب الصليبية .

ولقد كانت أسرة زين الدين أبى محمد عبد الكافى بن على بن تمام السبكى^(١) ، المتوفى سنة ٧٣٥ هـ ، من بين الأسر التى شاركت بنصيب كبير فى تلك النهضة العلمية . فولده شيخ الإسلام تقى الدين أبو الحسن على المتوفى سنة ٧٥٦ هـ - والد تاج الدين أبى نصر عبد الوهاب المترجم - : « طار اسمه فملأ الأقطار ، وحلق على الدنيا ولم يكتف بمصر من الأمصار »^(٢) وقد ولى التدريس فى المنصورية ، وجامع الحاكم ، وجامع ابن طولون والهكارية بمصر ، والمسروية بدمشق . وتصدى لتقى الدين أحمد بن تيمية ، ورد عليه فى مسألتى : الطلاق ، وزيارة قبر النبى ﷺ ، ووقع عليه الاختيار سنة ٧٣٩ هـ ليكون قاضى قضاة الشام ، وولى بدمشق مع القضاء خطابة الجامع الأموى ، ومشیخة دار الحديث الأشرفية ، والتدريس بالشامية البرانية ، وصنف ما يربو على مائة وخمسين مصنفا فى العلوم الشرعية والعربية .

وحفيده بهاء الدين أبو حامد أحمد بن على المتوفى سنة ٧٧٣ هـ - أخو المترجم - : « كانت له اليد الطولى فى علوم اللسان العربى والمعانى والبيان »^(٣) ، تولى التدريس بجامع ابن طولون وجامع الظاهر ، والسيفية ، والهكارية ، وأسند إليه إفتاء دار العدل ، وقضاء العسكر وقضاء الشام ، وخطابة جامع ابن طولون .

وحفيده جمال الدين أبو الطيب الحسين بن على المتوفى سنة ٧٥٥ هـ - أخو المترجم - : « كان ذهنه ثاقبا ولإدراك المعانى مراقبا ، وكان يعرف العروض جيدا وينظم الشعر بل الدر ويأتى فى معانيه بالزهر الزهر ، عفيف اليد فى أحكامه »^(٤) ، وقد تولى التدريس بالهكارية وبالشامية البرانية .

أما حفيده تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن على ، فقد أوفى على الغاية ، واستطاع بذكائه وجده ودأبه أن يصل إلى أرقى المناصب ، وأن يحتل مكان الصدارة فى الفتيا والتدريس ، وأن يخرج إلى الناس من مؤلفاته ما يبهى : غزارة علم ، وجمال عرض ، وحسن تنسيق .

(١) نسبة إلى سبك الأحد ، إحدى قرى محافظة المنوفية ، من دلتا مصر .

(٢) ترجمته (الطبقة السابعة) .

(٣) الدرر الكامنة ٢١١/١ .

(٤) ترجمته (الطبقة السابعة) .

ولد تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن قاضى القضاة تقى الدين أبى الحسن على بن زين الدين أبى محمد عبد الكافى بن ضياء الدين أبى الحسن على بن تمام بن يوسف بن موسى بن تمام السبكى بمصر سنة ٧٢٧ هـ . ذكر ذلك أكثر من واحد ممن ترجموا له ، ولكن ابن حجر بعد أن ذكر فى الدرر الكامنة أن مولده فى هذه السنة ، عاد فذكر فى طبقات الحفاظ التى جعلها ذيلًا على شرح البديعية لابن ناصر أن مولده كان فى سنة ٧٢٨ هـ . وقد وافقه ابن تغرى بردى فى المنهل الصافى والذهبى فى المعجم المختص فذكرا أن مولده كان فى سنة ثمان وعشرين وسبعمائة .

ولكن الزبيدى فى تاج العروس (س ب ك) يذكر أن مولده كان سنة ٧٢٩ هـ ، وربما نقل الزبيدى هذا عن السيوطى فى كتابه حسن المحاضرة .

وقد فتح تاج الدين عينيه على بيت يموج بالمعرفة ، ورأى وفود العلماء وهى تنسبل إلى مجلس أبيه ، ينهلون من علمه ، ويقيدون فوائده ، فليس غريبا أن يبدأ عبد الوهاب فى التحصيل مبكرا ، وأن يحفظ القرآن فى صغره ، ثم يأخذ عن والده أصول العربية والعقيدة والتشريع ويتلمذ لأساتذة عصره ، فيجيز له فى مصر بعد فترة وجيزة ابن الشحنة ، ويونس الدبوسى ، ويسمع على يحيى بن المصرى ، وعبد المحسن الصابونى ، وابن سيد الناس ، وصالح بن مختار وعبد القادر بن الملوك ، وغيرهم . ويذكر ابن تغرى بردى أيضا أنه سمع بمصر من المقدسى وطبقته .

وحين تولى والده منصب قاضى قضاة الشام رحل معه إلى دمشق ، فقدمها فى جمادى الآخرة سنة تسع وثلاثين وسبعمائة ، وفى دمشق سمع من زينب بنت الكمال ، وابن أبى اليسر ، وابن تمام ، وقرأ بنفسه على المزى ، ولازم الذهبى ، وتخرج بتقى الدين ابن رافع ، وأخذ عن الشيخ أثير الدين أبى حيان ، وأجاز له الحجار ، وخرج له ابن سعد مشيخة حدّث بها .

ولم يكتف ابن السبكى بتلقيه المعرفة على هؤلاء الأعلام ، وإنما اتجه إلى التحصيل بنفسه

وأقبل على العلم بهمة فتيّة ، ونفس مشوقة ، حتى قال عنه العماد الحنبلي : « طلب بنفسه ودأب » ، وقال عنه ابن حجر العسقلاني : « أمعن في طلب الحديث ، وكتب الأجزاء والطباق ، مع ملازمة الاشتغال بالفقه والأصول والعربية حتى مهر وهو شاب » .

وقد صور تاج الدين هذه الحقبة من حياته في كتابه الطبقات ، وكشف عن اهتمام والده بتربيته ، وحرصه على تثقيفه ، على يد كبار العلماء ، ممن يثق في علمهم ، ويطمئن إلى وسائلهم في الدرس والتلقين ، فقال في ترجمة شيخه المزيّ في الطبقة السابعة : « وكنت أنا كثير الملازمة للذهبي ، أمضى إليه في كل يوم مرتين : بكرة ، والعصر . وأما المزيّ فما كنت أمضى إليه غير مرتين في الأسبوع ، وكان سبب ذلك أن الذهبي كان كثير الملاطفة والحنّة فيّ ، بحيث يعرف من عرف حالي معه أنه لم يكن يحب أحداً كمحبته فيّ ، وكنت أنا شابا ، فيقع ذلك مني موقعا عظيما ، وأما المزيّ فكان رجلا عبوسا مهيبا ، وكان الوالد يحب أن ألزم المزيّ أكثر من ملازمة الذهبي ، لعظمة المزيّ عنده . وكنت إذا جئت غالبا من عند شيخ يقول : هات ، ما استفدت ، ما قرأت ، ما سمعت ؟ فأحكي له مجلسي معه ، فكنت إذا جئت من عند الذهبي يقول : جئت من عند شيخك . وإذا جئت من عند الشيخ نجم الدين القحقازي يقول : جئت من جامع تنكّر ، لأن الشيخ نجم الدين كان يشغلنا فيه ، وإذا جئت من عند الشيخ شمس الدين بن النقيب يقول : جئت من الشامية ، لأنني كنت أقرأ عليه فيها . وإذا جئت من عند الشيخ أبي العباس الأندلسي يقول : جئت من الجامع لأنني كنت أقرأ عليه فيه . وهكذا ، وأما إذا جئت من عند المزيّ فيقول : جئت من عند الشيخ . ويفصح بلفظ الشيخ ، ويرفع بها صوته . وأنا جازم بأنه إنما كان يفعل ذلك ليثبت في قلبي عظمته ، ويحثني على ملازمته » .

ويدل على عناية والده به ، وحرصه عليه ، مع نجابة تاج الدين ونباهة شأنه ، ما يحكيه في الطبقات في ترجمة المزيّ أيضاً ، حين يذكر أنه : « شغل مرة مكان بدار الحديث الأشرفية فنزلني فيه ، فعجبت من ذلك ، فإنه كان لا يرى تنزيل أولاده في المدارس . وها أنا لم أُل

في عمرى فقهة في غير دار الحديث ، ولا إعادة إلا عند الشيخ الوالد ، وإنما كان يؤخرنا إلى وقت استحقاق التدريس . على هذا ربانا رحمه الله . فسألته فقال : ليقال إنك كنت فقيها عند المزي . ولما بلغ المزي ذلك أمرهم أن يكتبوا اسمى في الطبقة العليا ، فبلغ ذلك الوالد فانزعج وقال : خرجنا من الجد إلى اللعب ، لا والله ، عبد الوهاب شاب ، ولا يستحق الآن هذه الطبقة ، اكتبوا اسمه مع المبتدئين . فقال له شيخنا الذهبي : والله هو فوق هذه الدرجة ، وهو محدث جيد - هذه عبارة الذهبي - فضحك الوالد وقال : يكون مع المتوسطين » .

وقد كان لهذا النبوغ المبكر أثره في لفت أنظار معاصريه إليه ، وتولييه المناصب العلمية في سن لم يُسمع أن أحدا وليها فيه ، فقد أجازته شمس الدين ابن النقيب بالإفتاء والتدريس ، ولما مات ابن النقيب كان عمر تاج الدين ثمان عشرة سنة .

وانتبه الذهبي إلى ما يتميز به تاج الدين ، فسجل في ترجمته له في المعجم المختص^(١) قوله : « عبد الوهاب ابن شيخ الإسلام تقي الدين على بن عبد الكافي القاضي ، تاج الدين أبو نصر السبكي الشافعي ، ولد سنة ٧٢٨ هـ . كتب عنى أجزاء نسخها ، وأرجو أن يتميز في العلم ، درس وأفتى ، وعنى بهذا الشأن » .

وقال عنه بعد ذلك الحافظ شهاب الدين بن حجر^(٢) : « حصل فنونا من العلم : من الفقه ، والأصول وكان ماهرا فيه ، والحديث والأدب ، وبرع وشارك في العربية ، وكان له يد في النظم والنثر ، جيد البديهة ، ذا بلاغة وطلاقة لسان وجرأة جنان ، وذكاء مفرط ، وذهن وقاد » .

وتولى أبو نصر بعد هذا مناصب عديدة ، فقد تولى التدريس في العزيزية ، والعدالية الكبرى ، والغزالية ، والعدراوية ، والشاميتين ، والناصرية ، والأمينية ، ومشيخة دار الحديث الأشرفية ، والتقوية ، والدماغية ، والمسروية ، كما تولى تدريس الشافعي بمصر والشيخونية ، والميعاد بالجامع الطولوني .

(١) نقلا عن الكتاني في فهرس الفهارس .

(٢) نقلا عن ابن حجر في الدرر الكامنة .

كما تولى تاج الدين خطابة الجامع الأموى بدمشق ، وناب عن أبيه فى الحكم ، وولى توقيع الدّست سنة ٧٥٤ هـ - وكتاب الدست يجلسون مع كاتب السر بمجلس السلطان بدار العدل فى المواعيد ، على ترتيب منازلهم بالقدمة ، ويقرأون القصص على السلطان ، بعد قراءة كاتب السر ، على ترتيب جلوسهم ويوقعون على القصص كما يوقع عليها كاتب السر - يقول تاج الدين : « وقد وليت توقيع الدست بالشام ، بين يدي ملك الأمراء الأمير علاء الدين أمير على بن على الماردينى نائب الشام » .

وقد تولى أبو نصر قضاء الشام فى ربيع الأول سنة ست وخمسين وسبعمائة ، ذكر ذلك ابن العماد الحنبلى ، وذكر أن هذا تم بسؤال والده ، ولكن ابن حجر العسقلانى يذكر فى « الدرر الكامنة » أن توليه القضاء كان فى ربيع الأول سنة سبع وخمسين .
وقد ظل تاج الدين يشغل هذا المنصب إلى أن وافاه أجله ، وكان ذلك على أربع مراحل ؛ فقد عزل مدة لطيفة - كما يقول ابن العماد - ثم أعيد ، ثم عزل بأخيه بهاء الدين ، وتوجه إلى مصر على وظائف أخيه .

ويصف لنا صلاح الدين الصفدى هذه الفترة ، وشوق دمشق إلى تاج الدين ، فى رسالة رد بها على رسالة من تاج الدين وهو بمصر سنة ٧٦٣ هـ ، فيقول^(١) :

لكن جعلت الشام بعد	دك كالبحيم وكان جنة
ودمشق بعدك قد ترد	ت ثوب حزن فيه دكنة
لم يسق من يرد البرد	ص ولو أتى أولاد جفنة
وكذاك ثورا بعد بعد	دك ما تنسى بل تسنة
والجامع المعمور كما	د يززع الأشواق ركنة
والقبة الشماء ليد	س بجوها للنسر فنة
كانت به الأعطاف وهـ	سى موائد يملأن صحنة

(١) الطبقات الكبرى ، ترجمة خليل بن أليك الصفدى (الطبقة السابعة) .

والآن أقفر وحشة وأسأل منه السقف دهنة
والله خيب فيك ما قال الحسود ورد ظنة
قد كاد حتى كاد يدسى ما تقوله عرضنة

ثم عاد تاج الدين إلى القضاء على عادته ، وولى الخطابة بعد وفاة ابن جملة ، ثم عزل وحصل له فتنة شديدة ، وسجن بالقلعة نحو ثمانين يوما ، ثم عاد إلى القضاء .

ومن يعرف الأحوال السياسية في ذلك العصر ، لا يدهش لمثل هذه الأمور ، فقد كان تولية قاض وعزله من الأمور السهلة الهينة ، التي لا يرى فيها الحكام الممالك إنما ولا حرجا ؛ ولكن عزل تاج الدين في المرة الأخيرة يسترعى الانتباه ، فإن الأمر لم يقف عند مجرد عزله ، وإنما أجريت محاكمة لتاج الدين ، حكم فيها ابن قاضى الجبل بحبس تاج الدين سنة ، وهرب أخوه بهاء الدين ، فاختفى عند التاج الملكى ، وهو يومئذ مباشر بالشام قبل أن يسلم ، واجتهدوا في طلبه فلم يظفروا به .

ولكن ترى ما سبب هذه المحاكمة ، وذلك الاضطهاد للأسرة كلها ؟!

يورد ابن حجر العسقلاني تفسيرين لهذه الحادثة :

أولهما قوله : وكان من أقوى الأسباب في عزله المرة الأخيرة ؛ أن السلطان لما رسم بأخذ زكوات التجار في جمادى الأولى سنة ٦٩ ، وجد عند الأوصياء جملة مستكثرة ، لكنها صرفت بعلم القاضى بوصلات ليس فيها تعيين اسم القابض ، فأريد من ناظر الأيتام أن يعترف أنها وصلت للقاضى ، فامتنع ، فآل الأمر إلى عزل القاضى .

وثانيهما قوله : قرأت بخط القاضى تقى الدين الزبيرى : لما قُتل يلبغا طلب الأشرف أمير على الماردىنى ، ومنكلى بؤغا أتاك العساكر ، فكان أول شيء تكلم فيه أمير على عزل تاج الدين ، وقرر في القضاء عوضا عنه الشيخ سراج الدين البلقينى ، فولى القضاء والخطابة وتوجه ، وكشفوا على تاج الدين ، وحكم ابن قاضى الجبل بحبس تاج الدين سنة .

ويبدو لنا أن كل واحد من التفسيرين يوضح جانباً من الحقيقة ، فإن ابن تغرى بردى يذكر في النجوم الزاهرة - أثناء الحديث على ولاية الأشرف - : أن أمير على حين ولى إمرة الشام كان أول ما طالب به عزل القضاة . ولعلها فرصة سنحت لمن غصّت حلوقهم بالمرارة منه من العلماء ، فقد كانوا ينفسون عليه مكانته ، ويحسدونه على ما أوتى من علم ، وما أصاب من نجاح لدى الحكام وجمهور الناس ، فلا عجب أن نراهم ينسجون حوله هذه التهمة ، ويقفون منه هذا الموقف العدائى العنيف ، خاصة وأنه كان يعطى نفسه حقها من التكریم ، فقد ذكر السيوطى أنه قال فى ورقة كتبها إلى نائب الشام : « وأنا اليوم مجتهد الدنيا على الإطلاق ، لا يقدر أحد يرد علىّ هذه الكلمة » ، ويعقب السيوطى على ذلك بقوله : « وهو مقبول فيما قال عن نفسه » .

ولعل ما نذر تاج الدين نفسه له ، من دراسة لأحوال الأمة الإسلامية فى عصره ، ونقد لطوائف الناس ، وتوضيح لأخطائهم ، ورسم السبيل إلى إصلاحهم فى كتابه العظيم « معيد النعم ومبيد النقم » كان من أقوى الأسباب فى عزله ، واختلاق هذه الأحداث حوله ، فقد استطاع تاج الدين أن يعالج مشكلات الأمة الإسلامية فى هذا الكتاب ، فى اثنتى عشرة ومائة مسألة ، بادئاً بالسلطان والمناصب السلطانية والعسكرية ، متدرجاً إلى كل الوظائف العامة ، حتى يصل إلى الفلاح فى أرضه ، ويقرر فى صراحة ندر أن تجدها فى عصره : « أن الفلاح حر لا يد لآدمى عليه » .

لعل ذلك كله رسم جوانب المأساة ، ولكن تاج الدين ، بشهادة معاصريه وقف موقف العالم المثبت ، والداعية المؤمن بدعوته ؛ فقد قال عنه معاصره ابن كثير : « جرى عليه من الحن والشدائد ما لم يجر على قاض قبله ، وحصل له من المناصب والرياسة ما لم يحصل لأحد قبله ، وانتهت إليه الرئاسة بالشام ، وأبان فى أيام محنته عن شجاعة وقوة على المناظرة ، حتى أفحم خصومه ، ثم لما عاد عفا عنهم ، وصفح عمن قام عليه » .

ولقد طارت شهرة تاج الدين فى كل الأقطار الإسلامية ، وأصبح عمدة الناس فى

الفتيا ، وكان أهل مصر يرسلون إليه يستفتونه في كثير مما يعرض لهم ، كما يقول المقرئ في « المواعظ والاعتبار » .

يقول ابن حجر في ذكر رجوعه إلى القضاء في المرة الأخيرة ، نقلا عن القاضي تقي الدين الزبيري : « ولم يزل من يتعصب للسبكي يلح على أمير على ، حتى أذن في إحضار تاج الدين وأخيه من دمشق ، فقدم بهاء الدين القاهرة ، وأقام تاج الدين في دمشق ، فلما بلغ ذلك البلقيني توجه إلى مصر ، فأقام قليلا ، ثم رجع إلى دمشق ، فتسلط عليه أهل الشام ، وكتبوا فيه محضرا ، وأسمعوه ما يكره . وسعى بهاء الدين لأخيه حتى ولى الخطابة ، فخطب أول يوم من شوال ، فشق ذلك على البلقيني ، وخرج بأهله وعياله إلى القاهرة ، فأعيد تاج الدين إلى القضاء ، وهى الولاية الأخيرة التى مات فيها » .

وبعد هذه الحياة الحافلة بجلائل الأعمال توفى تاج الدين أبو نصر بن على شهيدا بالطاعون ، بالدهشة ظاهر دمشق ، فى ذى الحجة ، خطب يوم الجمعة ، وطعن ليلة السبت رابعه ، ومات ليلة الثلاثاء سابعه سنة ٧٧١ هـ ، ودفن بترية السبكىة بسفح قاسيون ، عن أربع وأربعين سنة .

(٣)

هذه الحياة الحافلة التى عاشها تاج الدين تدل على ما كان يتمتع به من ثقافة واسعة رحية ، رفدتها أفكار شيوخه ، وهذبها حرصه ودأبه ، ثم تولى بسطها أمام الناس ذهنً وقاد لسان طلق ، وحجة قوية ، ونشرها بين جمهرة المثقفين ما أخذ نفسه به من التقييد والتأليف وما قُدِّر لمؤلفاته من القبول والنجاح .

وأول ما يلفت النظر فى ثقافة تاج الدين أنها ثقافة فقهية ، فقد حظى الفقه فى ذلك الوقت باهتمام العلماء ، لحاجة الناس إليه ، ولتصدر مناصب الفتيا والقضاء ، وقد ضرب تاج الدين فى هذا الفن بسهم وافر ، وألف فيه ، وجمع لوالده فتاويه وكثيرا من المسائل التى تفرد

فيها برأى ، أو رجع فيها قولاً على قول ؛ وقد بلغ من اهتمامه بالفقه أنه ملأ الطبقات الكبرى بمسائله ، وبسط فيها مناظراته .

كما اهتم تاج الدين بأصول الفقه ، وصنف في ذلك مختصراً ، جمعه من زهاء مائة مصنف مع زيادات قيدها ، وبلاغة في الاختصار .

وعنى بالحديث ، فروى السنة عن حفاظ عصره ، وقد صدق ابن حجر في قوله : « ومن الطبقات تعرف منزلته في الحديث » . واهتم بالجرح والتعديل ، وله في نقد الرجال نظرات نافذة . وهو يضع في ذلك قواعد ، يستدرك بها على من سبقه . ففى ترجمة أحمد بن صالح المصري (الطبقة الأولى) يقول : « الصواب عندنا أن من ثبتت إمامته وعدالته ، وكثر مادحوه ومزكوه ، وندر جارحه ، وكانت هناك قرينة دالة على سبب جرحه : من تعصب مذهبي أو غيره ، فإننا لا نلتفت إلى الجرح فيه ، ونعمل فيه بالعدالة . وإلا لو فتحنا هذا الباب ، أو أخذنا تقديم الجرح على إطلاقه لما سلم لنا أحد من الأئمة ، إذ ما من إمام إلا وقد طعن فيه طاعنون ، وهلك فيه هالكون » .

وقد ناقش ابن السبكي مشكلات العقيدة ، وخلافيات علم الكلام ، ومسائل المنطق في كثير من المواضع ، في الطبقات الكبرى ، وعقد للحديث عن الإيمان والإسلام والإحسان ، وزيادة الإيمان ونقصانه ، والقدر فصلاً طويلاً في المقدمة ، وأفاض في هذه المسائل ؛ مما يدل على بصره بعلم الكلام ، وطول باعه فيه .

ولتاج الدين ولع بمعرفة الحوادث التاريخية ، وسير الرجال ، وقد دفعه هذا إلى الإحاطة بالتاريخ الإسلامي ، وإلى التنقيب في تاريخ العلماء ، والاستفادة من تجاربهم ، وهو يدرك بذكائه مواطن الوهن في مؤلفات من سبقه ، ويحاول أن يضع لنفسه ، ولن يأتي بعده قواعد في التاريخ ، ونهجاً في سرد الحوادث .

ورغم محبته لشيخه الذهبي وإعزازه له ، فقد أخذ عليه أموراً في تاريخه ، يقول في ترجمة أحمد بن صالح المصري أيضاً : « وأما تاريخ شيخنا الذهبي - غفر الله له - فإنه على حسنة

وجمعه مشحون بالتعصب المفرط - لا واخذه الله - ، فقد أكثر الوقعة في أهل الدين ، أعنى الفقراء الذين هم صفوة الخلق ، واستطال بلسانه على كثير من أئمة الشافعيين والحنفيين ، ومال فأفرط على الأشاعرة ، ومدح فزاد في المجسمة . وهذا وهو الحافظ المذره ، والإمام المبجل ، فما ظنك بعوام المؤرخين » .

ويعقب ابن السبكي على ذلك بذكر قاعدة في المؤرخين فيقول : « فالرأى عندنا أن لا يُقبل مدح ولا ذم من المؤرخين إلا بما اشترطه إمام الأئمة ، وحبر الأمة ، وهو الشيخ الإمام الوالد رحمه الله حيث قال ، ونقلته من خطه في مجاميعه : يشترط في المؤرخ الصدق ، وإذا نقل يعتمد اللفظ دون المعنى ، وأن لا يكون ذلك الذى نقله أخذه في المذاكرة وكتبه بعد ذلك ، وأن يسمى المنقول عنه ، فهذه شروط أربعة فيما ينقله . ويشترط فيه أيضاً لما يترجمه من عند نفسه ، ولما عساه يطول في التراجم من النقل ويقصر أن يكون عارفاً بحال صاحب الترجمة : علماً ، وديناً ، وغيرهما من الصفات ، وهذا عزيز جداً . وأن يكون حسن العبارة عارفاً بمبدلولات الألفاظ ، وأن يكون حسن التصور ؛ حتى يتصور حال ترجمته جميع حال ذلك الشخص ، ويعبر عنه بعبارة لا تزيد عليه ، ولا تنقص عنه ، وألا يغلبه الهوى ، فيخيل إليه هواه الإطناب في مدح من يحبه ، والتقصير في غيره ، بل إما أن يكون مجرداً عن الهوى ، وهو عزيز ، وإما أن يكون عنده من العدل ما يقهر به هواه ، ويسلك طريق الإنصاف . فهذه أربعة شروط أخرى » .

ورغم اشتغال ابن السبكي بالفقه والحديث والتاريخ فقد احتفل بعلوم اللسان العربى ، وأفسح من صدر كتابه الطبقات لمسائل النحو والصرف والبلاغة والعروض ، واهتم بغريب اللغة ، بل إنه استدرك على ابن الأثير حديث زبّان بن قيسور ، وقال عنه^(١) : « إن ابن الأثير لم يذكره في نهاية غريب الحديث ، مع شدة تفحصه » .

(١) الطبقات الكبرى ٢/٢٠٠ : ترجمة محمد بن إبراهيم البوشنجى (الطبقة الثانية) .

وقد تعلق أبو نصر بدراسة الأدب منذ صباه ، واهتم بالشعر وصناعته ، وله في ذلك نظرات نافذة في اختيار كلمة دون كلمة ، أو تفضيل شاعر على شاعر ، تجد ذلك مبسوطاً في طول كتابه الطبقات وعرضه ، وقد صحب في حادثة سنه صلاح الدين خليل بن أيك الصفدى ، وهذه الصحبة استطاع السبكى أن يشحذ ملكته ، وأن يتناول القريض كما يتناوله مثله من العلماء ، يقول تاج الدين :

« كنت أصحبه منذ كنت دون سن البلوغ ، وكان يكاثبنى وأكاثبه ، وبه رغبت في الأدب فرمما وقع لى شعر ركيك من نظم الصبيان فكتبه هو عنى إذ ذاك وأنا ذاكر بعض ما بيننا مما كان فى صغرى .

ثم لما كان بعد ذلك كتب إلى مرة ، وقد سافر إلى مصر ولم يودعنى :

يا سيدا سافرت عنه ولم أجد جلدى يطاوعنى على توديعه
إن غبت عنك فإن قلبى حاضر يصف اشتياقى للحمى وربوعه
فى أبيات آخر ، فكتبت الجواب :

يا راحلا بجشا المقيم على الوفا ما الطُرف بعدك مؤذنا بهجوعه
إن غبت عنه فما تغير منه إلا م جسمه سقما ولون دموعه
والقلب بيت هواك كأنه بيت العروضيين من تقطيعه
فى أبيات آخر نسيها » .

ويستطرد ابن السبكى فى ذكر هذه المطارحات فيقول :

« كتب إلى مرة - وقد ولد له ولد - يدعونى إلى حضور عقيقته :

عبدك هذا الجديد أضحى يقول فاسمع له طريقه
يا جوهر فى الزمان فردا ماضر أن تحضر العقيقه
فكتبت إليه :

هئت ذا الجوهر المفدى بالعرض الكنه والحقيقه
لو لم تكن حازما مصيبا لم تفتد الناس بالعقيقه

وأعارنى مرة من تذكّرتّه مجلداً ، وكان يصنّف كتاباً فى الوصف والتشبيه ، وينظر عليه التذكرة ، ويكتب على كل مجلد إذا نجز : نجز التشبيه منه . فلما وجدت ذلك عليه بخطه ، قلت : هذا نصف بيت . فكتبت إلى جانبه :

نجز التشبيه منه	وروى الراون عنه
إن مولانا لبحرٌ	طافح إن لم يكنه
فاقد التشبيه فرد	فدع التشبيه منه

وكتب تاج الدين إلى الصفدى من القاهرة فى سنة ثلاث وستين وسبعمئة - وقد ذكر ابن حبيب فى درة الأسلاك بعض هذه الأبيات ، وهى بتمامها مع رسالة طويلة ، ورد الصفدى عليها مثبتة فى ترجمة خليل بن أيلك فى الطبقة السابعة - :

لا تُبكين ماءً تسنُّه	ودع الرسوم المُستجِنَّه
خلّ ادكارك فالدمو	ع كليله آثار دمنه
واهجر حبيبا نار خدّ م	يه إذا حققت جنّنه
وسنان كم نبهته	والعجب يطبق منه جفنه
أحوى بديع الحسن ظب	ياً فى الحقيقة أو كائنه

فى قصيدة طويلة يمدح فيها صلاح الدين .

وتلمح فى أثناء القضايا الأدبية التى يعرضها تاج الدين فى الطبقات مقدار ما كان يتمتع به من إدراك لمواطن الضعف والقوة فى النص الأدبى ، ففى ترجمة محمد بن عبد اللطيف السبكى - الطبقة السابعة - يذكر قصيدته التى يبدؤها بقوله :

وافتك عن قرب تباشير الفرخ وأنتك مسرعةً مباشر المنح

ثم يقول : وهذه قافية حلوة ، أول من بلغنى نظم فيها عبد الله بن المعتز ، حيث يقول :

خلّ الزمان إذا تقاعس أو جمح	واشكّ الهموم إلى المدامة والقدح
واحفظ فؤادك إن شربت ثلاثة	واحذر عليه أن يطير من الفرخ

في أبيات ، أنكر عليه قوله فيها :

وإذا تبادى في العتاب قطعته
وقال مهيار :

ما كان سهماً غار بل ظيباً سنح
في خده الكافور سبعة عنبر
إن لم يكن قتل الفؤاد فقد جرح
ما كان أغفلنى الغداة عن السبح
في أبيات أنكر عليه قوله فيها : « بَطَحَ »^(١) .

وقال ابن سناء الملك يمدح الفاضل :

ياقلب ويحك إن ظبيك قد سنح
فتنحَّ جهدك عن مراتعه تنح

ثم يستطرد ابن السبكي ، فيقول : ثم إنه اعترض ابن المعتز ومهيار بما اعترضهما ، ووقع هو في واحدة ، وهى قوله : « لا نمنح » فإنها لحن ، ولأبيات منها :

إن كان عبد الله أخطأ قوله
بالبضم والتقييل حتى نصطلح
وأنى بشيء ليس يحسن ذكره
مهيار حيث يقول قافيةً بطح
فلقد لحت وقلت فيما قلته
لو شئتُ أمسحه بلثمى لا نمنح

في أشباه لهذا كثيرة ، تجدها في الطبقات الكبرى .

وكان ابن السبكي يقرض الشعر في المناسبات التي تعود مثله من العلماء قول الشعر فيها ، فهو يرثى شيخه الذهبى ، ويذم الزمان ، ويرد على الزمخشري أبياته في الصفات ، ويراسل أقرانه بالشعر .

كما حجب إلى تاج الدين النظم في العلوم والمعارف ، فنظم قصيدته في الخلافات بين الأشاعرة والماتريدية ، وخص معجزات الرسول بإحدى قصائده ، كما نظم أرجوزة في الفقه وهو مسجون ، إبان فتنه عزله عن القضاء في المرة الأخيرة .

(١) البيت في ديوانه ١٨٧/١ وهو :

طُرِفَ تعوّد أنه لو طارد الر
يح الشمال عليه فارسُه بطح

وقد تمثلت ثقافة تاج الدين أئى نصر عبد الوهاب بن على فى هذه المؤلفات التى خلفها :

١ - أحاديث رفع اليدين

ذكره بروكلمان .

٢ - الأشباه والنظائر . فى الفروع

ذكره ابن حجر ، وابن حبيب ، وابن تغرى بردى ، وابن العماد ، وحاجى خليفة ، وبروكلمان .

٣ - أوضح المسالك فى المناسك

ذكره بروكلمان .

٤ - تبين الأحكام فى تحليل الحائض

ذكره بروكلمان .

٥ - ترجيح تصحيح الخلاف

ذكره بروكلمان .

٦ - ترشيح التوشيح . فى أصول الفقه

ذكره ابن حجر ، وابن العماد ، والكتانى ، وحاجى خليفة ، وبروكلمان .

وذكر المصنف التوشيح فى ٦١/٣ ، ١٤٨ ، ٢٥٨ ، ٢٩٦ .

٧ - الترغيب والترهيب . ذكره هو فى الجزء الأول ١٥١ .

٨ - توشيح التصحيح

ذكره ابن حجر ، وابن حبيب ، وابن تغرى بردى ، وابن العماد ، وحاجى خليفة ، وبروكلمان .

٩ - جزء فى الطاعون

ذكره حاجى خليفة .

١٠ - جلب جلب

ذكره ابن العماد ، وقال عنه : جواب عن أسئلة سأل عنها الأذرعى وغيره .

١١ - جمع الجوامع . فى أصول الفقه

طبع فى مجموع فى مصر ١٣١٠ هـ . قال صاحب كشف الظنون : جمعه من زهاء مائة مصنف ، مشتمل على زبدة ما فى شرحه على مختصر ابن الحاجب والمنهاج ، مع زيادات وبلاغة فى الاختصار ، ورتب على مقدمات وسبعة كتب .

١٢ - الدلالة عن عموم الرسالة ، جوابا عن أسئلة أهل طرابلس

ذكره بروكلمان .

١٣ - رفع الحاجب عن شرح مختصر ابن الحاجب . فى الأصول

ذكره ابن حجر ، وابن حبيب ، وابن تغرى بردى ، وابن العماد ، والكتانى ، وحاجى خليفة ، وبروكلمان .

١٤ - رفع الحوبة فى وضع التوبة

ذكره المصنف فى ٣٢٧/٢ ، وذكره بروكلمان .

١٥ - السيف المشهور فى شرح عقيدة أبى منصور [الماترىدى]

ذكره المصنف فى ٣٨٤/٣ ، وذكره حاجى خليفة .

١٦ - شرح منهاج الوصول إلى علم الأصول ، للبيضاوى

ذكره ابن حجر ، وابن حبيب ، وابن تغرى بردى ، وابن العماد ، والكتانى ، وحاجى خليفة .

١٧ - طبقات الشافعية الصغرى والوسطى والكبرى

١٨ - فتاوى

ذكره بروكلمان .

١٩ - قواعد الدين وعمدة الموحدين

ذكره بروكلمان ، وذكر ابن حجر هذا الكتاب باسم : القواعد المشتملة على الأشباه والنظائر .

٢٠ - مصنف فى علم الألغاز

ذكره حاجى خليفة .

٢١ - معيد النعم ومبيد النقم

طبع فى ليدن ١٩٠٨ م بعناية الأستاذ David. W. Myhrman وطبع أيضاً بالقاهرة طبعات مختلفة .

٢٢ - مناقب الشيخ أبى بكر بن قوام

ذكره بروكلمان .

٢٣ - منع الموانع

وهو تعليق على جمع الجوامع . طبع فى مجموع - مصر ١٣٢٢ هـ .

لم يكن ابن السبكي أول من صنف في طبقات الشافعية ، ولا آخر من أدلى دلوه ، فقد سبقته جهود وتلته تصانيف . وقد ذكر في مقدمته من صنفوا في الطبقات . قال :
 « فأول من بلغنى صنف فى ذلك الإمام أبو حفص عمر بن على المطوّعى ، المتوفى نحو ٤٤٠ هـ صنف للإمام أبى الطيب سهل الصُّعلوكى كتابا سماه « المُذْهَب فى ذكر شيوخ المذهب » .

ثم ألف القاضى أبو الطيب الطبرى المتوفى سنة ٤٥٠ هـ مختصرا ، ذكر فيه مولد الشافعى رضى الله عنه ، وعدّ فى آخره جماعة من الأصحاب .

ثم ألف الإمام أبو عاصم العبّادى المتوفى سنة ٤٥٨ هـ كتابه .

ثم ألف شيخ الإسلام أبو إسحاق الشيرازى المتوفى سنة ٤٧٦ هـ وهو غير مقتصر على الشافعيين ، بل فيه الشافعية ، والمالكية ، والحنفية ، والحنابلة ، والظاهرية .

ثم ألف الحافظ أبو محمد عبد الله بن يوسف الجرجانى المتوفى سنة ٤٨٩ هـ كتابه الطبقات .

ثم ألف القاضى أبو محمد عبد الوهاب بن محمد القاضى الشيرازى المتوفى سنة ٥٠٠ هـ كتاب « تاريخ الفقهاء » .

ثم ألف المحدّث أبو الحسن بن أبى القاسم البيهقى المعروف بفُنْدُق المتوفى سنة ٥٦٥ هـ ، كتابا سماه « وسائل الأملعى فى فضائل الشافعى » .

ثم جمع الشيخ الإمام أبو النجيب السُّهْرَوْرْدِى المتوفى سنة ٥٦٣ هـ مجموعا .

ثم جاء الشيخ ابن الصَّلَاح المتوفى سنة ٦٤٣ هـ فألف كتابه ، ولكن المنية عاجلته والكتاب مسوّد ، فأخذَه الإمام أبو زكريا النووى المتوفى سنة ٦٧٦ هـ واختصره وزاد أسامى قليلة جدا ، ومات أيضا وكتابه مسوّد فيبيّضه الحافظ أبو الحجاج المِزْزِى ، المتوفى سنة ٧٤٢ هـ .

ثم ألف الشيخ عماد الدين بن باطيش المتوفى سنة ٦٥٥ هـ كتابه .

هذه جهود العلماء قبل ابن السبكي . كما ذكرها .

ومن معاصريه ثم من بعده صنف في الطبقات :

الشيخ جمال الدين عبد الرحيم بن حسن الإسنوي المتوفى سنة ٧٧٢ هـ فرغ من تأليفه سنة ٧٦٩ هـ . ورتب على حروف الاشتهار . ذكر في كل حرف فصلين ، أوله في رجال الشرح الكبير والروضة ، والثاني في الزائد عليهما . ونقل من طبقات التفليسي لموسى عمر ابن بُندار المتوفى سنة ٦٧٢ هـ وهي مجلد ضخيم ألفه قبل الإسنوي^(١) .

ثم صنف الحافظ ابن كثير المتوفى سنة ٧٧٤ هـ^(٢) .

ثم صنف محمد بن الحسن بن عبد الله الحسيني الواسطي المتوفى سنة ٧٧٦ هـ كتابه « المطالب العلية في مناقب الشافعية »^(٣) .

ومن رجال القرن الثامن أيضا صنف شمس الدين محمد بن عبد الرحمن العثماني قاضي صفد ، المتوفى سنة ٧٨٠ هـ^(٤) .

ثم ألف القاضي شرف الدين أبو عبد الله محمد بن قطب الدين عبد الرحمن ، المتوفى في حدود سنة ٨٠٠ هـ كتابه « الكافي في معرفة علماء مذهب الشافعي »^(٥) .

وصنف سراج الدين عمر بن علي المعروف بابن الملقن المتوفى سنة ٨٠٤ هـ كتابا سماه « العقد المذهب في طبقات حملة المذهب » من زمن الشافعي ، بعبارات محررة إلى سنة ٨٧٠ هـ . رتب على ستة وثلاثين طبقة^(٦) .

(١) كشف الظنون ١١٠١ ، الدرر الكامنة ٣٥٤/٢ .

(٢) كشف الظنون ١١٠١ ، الدرر الكامنة ٣٧٣/١ .

(٣) فهرس مخطوطات جامعة الدول العربية . قسم التاريخ .

(٤) كشف الظنون ١١٠١ .

(٥) فهرس التاريخ بدار الكتب المصرية .

(٦) كشف الظنون ١١٠١ ، الضوء اللامع ١٠١/٦ ، فهرس دار الكتب المصرية .

ثم ألف الفيروزابادى صاحب القاموس ، المتوفى سنة ٨١٧ هـ « المرقاة الأرفعية »^(١) .
وجمع الشيخ شهاب الدين بن أرسلان بن أحمد بن حسين الشافعى الرملى ، المتوفى سنة ٨٤٤ هـ^(٢) .

ثم صنف القاضى تقى الدين أبو بكر بن أحمد بن شُهبة الدمشقى الأسدى ، المتوفى سنة ٨٥١ هـ مصنفًا رتبته على تسع وعشرين طبقة. وعليه ذيل للشريف عز الدين حمزة بن أحمد الدمشقى الحسينى الشافعى المتوفى سنة ٨٧٤ هـ^(٣) .

ثم ألف رضى الدين محمد بن أحمد بن عبد الله الغزى العامرى الشافعى ، المتوفى سنة ٨٦٤ هـ كتابه « بهجة الناظرين إلى تراجم المتأخرين ، من الشافعية البارعين »^(٤) .

وفى أخريات القرن التاسع ألف القاضى قطب الدين محمد بن محمد الخيضرى المتوفى سنة ٨٩٤ هـ كتابا سماه « اللع الألمعية لأعيان الشافعية »^(٥) .

وقد جمع كمال الدين أبو المعالى محمد بن أحمد الشافعى المقدسى المتوفى سنة ٩٠٦ هـ تراجم لبعض فقهاء الشافعية فى ست وركات^(٦) .

ثم صنف أبو بكر بن هداية الله الحسينى الملقب بالمصنف ، المتوفى سنة ١٠١٤ هـ كتابا فى طبقات الشافعية طبع ضمن مجموعة ببغداد ١٣٥٦ هـ .

(١) كشف الظنون ١١٠١ .

(٢) كشف الظنون ١١٠١ ، الضوء اللامع ٢٨٢/١ .

(٣) كشف الظنون ١١٠١ ، الضوء اللامع ٢١/١١ ، ١٦٣/٣ ، فهرس دار الكتب المصرية

(٤) فهرس جامعة الدول العربية .

(٥) كشف الظنون ١١٠١ ، الضوء اللامع ١١٧/٩ - ١٢٤ . قال السخاوى فى ترجمته للقاضى قطب الدين : وقد استعار من شيخنا [ابن حجر] نسخته بالطبقات الوسطى لابن السبكي ، فجرد ما بها من الحواشى المشتملة على تراجم مستقلة وزيادات فى أثناء التراجم مما جردته أيضا فى مجلد ، ثم ضم ذلك لتصنيف له على الحروف ، لخص فيه طبقات ابن السبكي مع زوائد حصلها بالمطالعة . وانظر أيضًا الإعلان بالتبويب ص ١٨٨ .

(٦) فهرس جامعة الدول العربية .

وآخر من نعرف ألف في طبقات الشافعية شيخ الإسلام عبد الله الشرقاوى ، المتوفى سنة ١٢٢٧ هـ . جمع في كتابه تراجم متأخري الشافعية من سنة ٩٠٠ إلى ١١٢١ هـ^(١) .

(٦)

هذه هي جهود العلماء في الترجمة لأعلام الشافعية ، ولكن ابن السبكي حين ألف كتابه هذا جاء إلينا بعمل فريد ، وقدم إلى الناس إحدى الموسوعات العربية ، ينهل منها كل من يطلب المعرفة ، وينشد فيها كل متخصص حاجته .

ولم يكن تأليفه الطبقات فكرة عابرة ، أرقته حيناً فسجلها في كتاب ، وإنما كان يعد لذلك - كما أخبرنا في المقدمة^(٢) - منذ صباه ، كلف بأخبار العلماء فجعل يجمعها ، وكلمة وقع نظره على شاردة قيدها ، أو حادثة أمعن النظر فيها ، أو على مناظرة شهدتها وحكم فيها ، حتى إذا استقام عوده ، ونضجت ثقافته ، وكثرت تجاربه ، وملك زمام القول أفرغ هذا كله في كتابه الطبقات . ماراً بك على رياض الفكر ، ومواكب الشعر ، ومجالس العلماء « فبينما الفقيه منها في عويص الفروع المشتبكة ، إذا به في رياض من آداب تحرك فاقد الحركة . وبينما الأديب في نشر حلل مطرزة ، إذا به في مواعظ وحكم موجزة . وبينما المريد في سلوك الطريق ، إذا به في أحاديث مُسنّدة يعلم أنها باب التوفيق . وبينما المؤرخ في حكايات انقضى زمانها ، إذا به قد عبر على تراجم يعز على المنقّب وجدانها »^(٣) .

والطبقات الكبرى تشتمل على مقدمة ، وسبع طبقات ، يترجم في كل طبقة منها لأعلام مائة سنة . أما المقدمة فقد استوفى فيها ابن السبكي مباحث عدة ، وناقش مسائل في الحديث ، ونقد الرجال ، والنحو ، بل إنه ليعرض لقضايا علم الكلام ، فيقدمها

(١) فهرس دار الكتب المصرية .

(٢) صفحة ٢٠٦ من نشرتنا هذه .

(٣) صفحة ٢٠٩ .

وبين الآراء ، فى استقصاء شامل وسرد منهجى ، ثم ينتصر لرأيه ورأى الأشاعرة آخر الأمر .

ولم ينس تاج الدين أن يناقش آراء العلماء فى رواية الشعر ، وإنشاده ، وسماعه ، وأن يذكر ما بلغه مسندا من الشعر الذى أنشد بين يدى رسول الله ﷺ ، وما روى عن صحابته ، وعلماء الأمة وأخبارها ، وما روى عن الشافعى نفسه ، من إنشاء الشعر وإنشاده وسماعه .

وقد حرص أبو نصر على أن يذكر فى المقدمة طبقات الرواة ، الذين عنهم أخذ ، وبطريقهم أسند .

كما هزته الأحداث الدامية التى شهدتها العالم الإسلامى ، إبان الزحف المغولى الغاشم ، فذكر حوادثها مختصرة ، على النحو الذى يحتاج إليه الفقيه ، وينشده غير المتخصص .

وقد نهج ابن السبكى فى مقدمته هذه نهجا فريدا ، حيث لم يستطرد فى افتتاحيته فيفتتح ببسم الله ، ويثنى بحمد الله ، والصلاة على رسوله ﷺ ، وذكر الشهادتين ، وإنما كان يتمهل فى ذكر ذلك كله . فقد بدأ كتابه ببسم الله وحده ، تيمنا وتبركا ، ثم روى بسنده كل ما يتصل بافتتاح الأعمال من أحاديث ، وناقش كل ما عرضت له هذه النصوص من قضايا ، حتى إذا اطمأن إلى أن القول قد تم وكمل ، قال : « فبسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذى رفع طبقات العلماء على هام الملوك وتاجها ... »^(١) . ثم روى بعد ذلك بسنده الأحاديث التى تتعلق بالشهادتين ، واستوفى مباحثهما ، حتى تسنى له فيما بعد أن يقول « فنشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة آمنة من اختلال الأذهان واختلاجها ... ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله ، إمام التقوى وضياء سراجها ... »^(٢) .

(١) صفحة ٢٤ .

(٢) صفحة ١٥٢ .

ثم يروى بعد ذلك بسنده الأحاديث التي تحض على الصلاة على النبي ﷺ وبين ثواب فعلها ، وإثم تركها ، ثم يقول : « فصلى الله على سيدنا محمد وآله ، وأصحابه ، وسائر الأنبياء والمرسلين ، القائمين بمداواة القلوب ... »^(١)

ثم يروى بعد ذلك بسنده أحاديث فضل قریش وعلمائها ، ويخوض في بحوث شتى حول الإمامة السياسية ، وإمامة العلماء ، ويتحدث عن مكانة الشافعي ونسبه ، ثم عن الأئمة الذين يبعثهم الله على رأس كل مائة سنة ، فيجددون لهذه الأمة أمر دينها ، ثم يقول : « ورضى الله عن إمامنا المطلبى الشافعي ، شافى العي عن الكلمات باعتدال مزاجها ... »^(٢) .

ولا يستطيع ابن السبكي أن يقول : « أما بعد » ويشرح سبب تأليفه للكتاب ، ونهجه في وضعه إلا إذا ذكر بسنده من الأحاديث والآثار ما يتعلق بـ « أما بعد » وأول من قالها . أما الطبقات فقد كسرهما تاج الدين على سبعة أجزاء ، وعقد لأهل كل مائة سنة طبقة ، وهو يرى أن كتابه هذا : « كتاب حديث ، وفقه ، وتاريخ ، وأدب ، ومجموع فوائد تنسل إليه الرغبات من كل حدب ، نذكر فيه ترجمة الرجل مستوفاة ، على طريقة المحدثين والأدبا ، ونورد نكتا تسحر عقول الألبا »^(٣) .

وقد جرى ابن السبكي في ترجمته رجال الطبقات على نهج قويم ، يدل على بصر بتاريخ المترجم ، وإحاطة بالفنون التي أجادها ، ووعي لدقائق الأمور التي أثارها ، وبصر بالجديد الذي أضافه إلى العلم ، والمسائل التي تفرّد بها في فنه ، يقول تاج الدين بعد أن ذكر سبيله هذا : « وكل هذا وراء مقصودنا الأعظم فيه ، ومرادنا الأهم الذي لا يقوم به سهر الليل ولا يوفيه ، إذ أعظم مقاصدنا أننا عند الفراغ من ترجمة كل رجل ، أو في أثنائها

(١) صفحة ١٨٩ .

(٢) صفحة ٢٠٣ .

(٣) صفحة ٢٠٧ .

ننظر ، فإن كان من المشهورين الذين طارت تصانيفهم فملأت الأفطار ، ودارت الدنيا ولم تكتف بمصر من الأمصار ، نظرنا فإن وجدنا له تصنيفا غريبا ، استخرجنا منه فوائد ، أو مسائل غريبة ، أو وجوها في المذهب واهية ، وكتبناها . وإلا فنذكر وجها غريبا ذكر عنه ، أو مقالة غريبة ذهب إليها ، وشذّبها عن الأصحاب . وإن كان من المقلّين أعملنا جهدنا في حكاية شيء من ذلك عنه . وربما غلب الفقه على إنسان ولم نر عنه في الفقه مستغربا ، فنقلنا عنه فائدة غير فقهية : إما حديثية ، أو غيرها . وربما غلب عليه الحديث ، أو غيره من العلوم سوى الفقه ، فأعملنا جهدنا في نقل شيء من الفقه ، أو ما يناسبه عنه . فإن لم نجد له شيئا لم نخل ترجمته من حكاية ، أو شعر ، أو فائدة تستغرب ^(١) .

وقد أدرك تاج الدين صعوبة هذا المنهج ، ومشقته على القارئ ؛ ولهذا فهو يعتذر عن احتفاله بالأسانيد ، وحرصه على نقل المناظرات والمجادلات كاملة ، والاستطراد إن احتاج الأمر إلى الاستطراد ، يعتذر عن ذلك كله بأنه جعل كتابه كافيا لمن يقرؤه ، مغنيا له عن النظر في كثير من المصادر .

ولم يستطع ابن السبكي أن يفى بوعده هذا في كل ترجمة ، فهو أحيانا يذكر اسم المترجم ، ثم يسكت عنه ، وأحيانا أخرى يذكر ترجمته ناقصة ، بل إن في الكتاب مباحث لم يكملها المؤلف ، ربما كان يرجى ذلك كله إلى فسحة من الوقت ، ولكنه لم يُنسأ له في الأجل ، حيث مات في الرابعة والأربعين .

وقد اعتمد تاج الدين في ترتيبه كل طبقة على حروف المعجم ، وبدأ بذكر الأحمدين ثم المحمدين ، تيمنا وتبركا ، وكذلك فعل في الطبقات الوسطى والصغرى ، حيث رتب المترجمين على حروف المعجم مع البدء أيضا بالأحمدين والمحمدين ، ولكنه أغفل الترتيب الزمني للطبقات ، واكتفى بالترتيب على حروف المعجم ، ما عدا من لقي الشافعي منهم ، فقد أفرد هؤلاء بطبقة ، وذكرهم في صدر الكتاب ، مرتبين على حروف المعجم .

(١) صفحة ٢٠٨ .

وهنا تتور مشكلة السبق فى تأليف الطبقات الثلاث ، بأىها بدأ تاج الدين ؟

يرى الأستاذ محمد الصادق حسين فى كتابه « البيت السبكى » : أن تاج الدين قد تدرج فى وضع طبقاته ، من المختصر إلى المطول ، لا من المطول إلى المختصر . وينقض على واضعى فهرس دار الكتب قولهم : إن المؤلف قد اختصر « الطبقات الوسطى » من « الكبرى » ثم اختصر « الطبقات الصغرى » من « الوسطى » ويعلق على هذا بقوله : « وهذا وهم ، فالثابت أن الطبقات الوسطى ألفت قبل الكبرى ؛ لأننا نجد فى جزء من الوسطى مخطوط : قال المؤلف رحمة الله عليه : فرغت منه فى ليلة الثالث والعشرين من ذى القعدة ، سنة أربع وخمسين وسبعمائة ، بدمشق المحروسة ، عمرها الله تعالى . اهـ ، والطبقات الكبرى إنما فرغ من تأليفها سنة ٧٦٦ هـ ، كما جاء فى ذيل كثير من الأجزاء ، وكما ترى فى إحدى القطع الثلاث (فى صدر هذا البحث) التى يقال إنها بخط تاج الدين . وثابت أن الطبقات الوسطى ألفت وأبو المؤلف من الأحياء ، ففى الطبقات الكبرى أن على ابن عبد الكافى كتب بخطه على ترجمته فى الطبقات الوسطى عبارة اختتمها بقوله : كتبه على السبكى فى يوم السبت ، مستهل جمادى الآخرة سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة . اهـ ، لكن الطبقات الكبرى ألفت بعد وفاة والد المؤلف ؛ ففى غير موضع منها يذكر المؤلف والده ويترحم عليه ، فلا نزاع إذن فى أن الوسطى ألفت قبل الكبرى . ولم يتيسر لى الاطلاع على الصغرى لمعرفة تاريخ تأليفها إن وجد ما يدل عليه ، لكننى أرجح أنها ألفت قبل الوسطى » .

وقد تيسر لنا الاطلاع على نسخة من الطبقات الصغرى محفوظة بدار الكتب المصرية ، جاء بأولها : « هذا مختصر لطيف ، فى تاريخ الفقهاء الشافعيين ، أصحاب الإمام أبى عبد الله محمد بن إدريس الشافعى ، رضى الله عنه ، جمعنا فيه ما أوردناه فى كتابنا الكبير من الأسماء ، واقتصرنا فيه على نبذ يسيرة ، أعان الله على إكماله ، بمنه وكرمه وأفضاله » ، وفى آخرها : « هذا آخر المختصر الأصغر ، من كتابنا طبقات الشافعيين ،

وهو مع التناهي في الاختصار والاقتصار ، جليل الفائدة ، جميل العائدة ، ولا يقدر على جمعه إلا من جمع من كتابنا الكبير والوسيط ، وأضافهما إلى كتبه « ، وفي آخرها أيضا : « قال المؤلف رحمه الله : كتبه مؤلفه عبد الوهاب بن علي السبكي ، كان الله له ، واتفق الفراغ منه صبيحة يوم الأحد ، سابع شعبان المكرم ، سنة ٧٥٦ هـ بدمشق » .

وقد رجعنا إلى نسخة من الطبقات الوسطى محفوظة بدار الكتب المصرية ، تبدأ بحرف الطاء ، وسجلنا منها هذه الملاحظات :

١ - في آخر ترجمة القفال الصغير - الطبقة الرابعة - يقول : « وقد أسندنا حديثه في الطبقات الكبرى » .

ب - في آخر ترجمة عبد الله بن مروان - الطبقة السابعة - يقول : « أسندنا حديثه في الطبقات الكبرى » .

ج - في أثناء ترجمة منصور بن محمد بن عبد الجبار - الطبقة الرابعة - يقول : « أسندنا حديثه في الطبقات الكبرى » وكذلك قال في ترجمة يعيش بن صدقة - الطبقة الخامسة - .

د - في أثناء ترجمة القاسم بن محمد الشاشي ، صاحب التقريب - الطبقة الثالثة - يقول : « وقد وقفت على الأول والثاني (من كتاب التقريب) وهما إلى أثناء الحج ، ولعلنا نورد منهما شيئا من المستغربات في الطبقات الكبرى » .

هـ - في آخر الطبقات الوسطى ، في باب الكنى والنسب ، يقول : « وببيت السمعاني بيت كبير ... ومن لم يسبق ذكره منهم محمد بن الحافظ أبي سعيد عبد الكريم ، وإنما أغفلنا ذكره نسيانا ، وكان يكنى أبا زيد ، وكان واعظا ... مولده سنة أربع وخمسين ، وتوفي بعد سنة سبع عشرة وستائة » .

و - وفي آخرها يقول : « وإلى هنا انتهى هذا المختصر . قال المؤلف رحمه الله عليه : فرغت منه في ليلة الثالث والعشرين من ذي القعدة ، سنة أربع وخمسين وسبعمائة ، بدمشق المحروسة » .

كما تيسر لنا الاطلاع على نسخة كاملة من الطبقات الوسطى ، محفوظة بجامعة الدول العربية ، يذكر المؤلف في مقدمتها أنه ألف كتابا في طبقات الفقهاء الشافعية مبسوطا حافلا ، حاويا لما يراد منه .

ويذكر أيضا - بعد انتهائه من إسناد أحاديث الافتتاح والحمدلة والشهادتين - يقول : « وفي الباب أحاديث أخر كثيرة ، سقناها مع إشباع الكلام عليها في الطبقات الكبرى » .

ويذكر أيضا - بعد إسناده أحاديث أما بعد - قوله : « وقد جمعنا في أما بعد أشياء جمّة في الطبقات الكبرى » .

ويبدو للوهلة الأولى أن هذه النقول تخلق من الترتيب الزمني لتأليف الطبقات مشكلة تاريخية ، ولكن ابن السبكي يحسم ذلك ، بقوله في مقدمة الطبقات الوسطى - المحفوظة بجامعة الدول العربية - : « فأعملنا الهمة في كتابنا ، حتى جاء على الوجه الذى شرحناه ، إلا أنى لِمَا التزمنا فيه من ذكر الغرائب ، لم يمكنى إخراجه من يدي في هذا الزمان ؛ لأنه كل يوم يتجدد فيه استفادة ما لم يكن يعرفه ، فيحتاج إلى كتابته ، وأيضا فبقيت تراجم كثيرة نأمل تحصيلها وإيداعها فيه ، ومعلوم أن في إخراجه من اليد إلى من يشب عليه ، وينسخه أحد أمرين : إما الكف عن كتابة ما تحدث بعد ذلك معرفته ، وإما إتلاف النسخ على أصحابها بالزيادة والنقصان وكثرة التغيير ، فعمدت إلى ذلك الكتاب ، واختصرته اختصارا ، يأتي بالتراجم على وجهها لا يدع منها اسما ، فإن أنت رأيت اسما في ذلك الكتاب غير مذكور هنا ، فاعلم أنه مما زيد فيه ، بعد خروج هذا المختصر من أيدينا » . ويتضح من هذا أن ابن السبكي قد بدأ بإخراج طبقات الشافعيين في كتابه « الطبقات الوسطى » وكان في أثناء ذلك يعمل لإصدار موسوعته في هذا الفن ، التى عرفت باسم « الطبقات الكبرى » .

وإذاً فقد اتجه تاج الدين إلى الفراغ من كتابه « الطبقات الوسطى » ليخرجه إلى الناس ، تاركا المسائل المتعلقة لكتابه الكبير « الطبقات الكبرى » ولهذا لم يتيسر له أن يصل بالطبقات الكبرى إلى الكمال فيما كان يؤمله ، فترك بعض الثغرات في كتابه : مسائل لم يكتمل القول فيها ، وترجمات لم يهتد إلى كل أخبارها ، وأسماء لم يعثر على أخبار تميزها ، وتحدد معالمها .

وربما كان ابن السبكي يرجع إلى طبقاته الوسطى بالصقل والتهديب ، فلو رجعنا إلى الفقرة « هـ » من ملاحظتنا على نسخة دار الكتب من « الطبقات الوسطى » ورجعنا إلى الطبقة السادسة من « الطبقات الكبرى » فلن نجد لمحمد السمعي ذكرًا فيها .

كذلك نلاحظ أن بعض التراجم الناقصة في الكبرى كاملة في الوسطى ، ففي ترجمة طلحة بن الحسين - الطبقة الخامسة - نجده لا يذكر إلا اسمه ، أما في الطبقات الوسطى فإنه يقول : « طلحة بن الحسين أبو محمد الإسفرائيني [المهرجاني ، مات في دهليز الحمام فجأة ، وذلك في خامس ذى الحجة ، سنة ست وأربعين وخمسمائة] » .

ومن هنا كانت الطبقات الوسطى محل إجلال العلماء ، وقد اعتمدها ابن حجر ، واستعارها منه القاضي قطب الدين محمد بن محمد الخيضرى المتوفى سنة ٨٩٤ هـ وأفاد منها في تأليف مصنفه عن الشافعية^(١) .

ولعله اختصر طبقاته الصغرى ، من الطبقات الوسطى ، ومن الطبقات الكبرى ، أثناء عمله فيها وقبل الفراغ منها .

* * *

(١) الضوء اللامع ١١٧/٩ - ١٢٤ .

وقد اعتمدنا في نشر هذا الكتاب وتحقيقه على :

١ - نسخة محفوظة بمعهد المخطوطات - جامعة الدول العربية - مصورة عن مكتبة البديري بالقدس ، وهي مكتوبة بخط نسخ جيد ، غير مرتبة ، وأوراقها مضطربة ، وبها خروم ، وقد تملكها بعض العلماء ، منهم الحافظ ابن حجر وغيره ، وهي في ٥٠٠ ورقة ومقاسها ١٩ × ٢٨ سم .

وقد تفحصنا أوراقها ، وأعدنا ترتيبها ، فسلم لنا قدر صالح منها ، يشتمل على المقدمة ، والطبقات : الأولى ، والثانية ، وبها خروم يسيرة ، والثالثة كاملة ، وبعض لوحات من الرابعة ، والسادسة ، وبها خروم ، والسابعة كاملة .

وكان لتمامك بعض العلماء لها فضل كبير ، في دقة المقابلة ، حيث عورضت بنسخة المصنف والضبط بالقلم في بعض الأماكن . وخلال عملنا في المقدمة اتضحت لنا ملاحظات قيمة تجدها في صفحات : ٢٠ السطر ٢٠ ، ٦٨ السطر ١٥ ، ٧٨ السطر ١٨ ، ٨٢ السطر ١٨ ، ١٤٧ السطر ١٩ ، ١٨٧ السطر ٢٠ ، ١٩٧ السطر ٢٢ ، ٢٥٣ السطر ١٩ . وقد رمزنا لهذه النسخة بالرمز : « ج » .

٢ - نسخة محفوظة بدار الكتب المصرية ، تقع في ٤٥٨ ورقة ، مقاسها ٣٠ × ٢٠ سم بأولها فهرس بأسماء المترجمين والحوادث المهمة ، وبآخرها أدعية مأثورة للمصنف ، وقد تمت كتابتها في يوم الأربعاء السادس من شهر رجب سنة ١١٢٩ هـ ، وهي نسخة كاملة ، نسخها غير دقيق ، وبها سقط في بعض المواضع ، وقد لاحظنا أن بعض هذا السقط مثبت في الأصل المطبوع وفي صلب : ج ، والبعض الآخر ، في المطبوع وعلى هامش : ج . وهذه النسخة توافقت : ج غالبا ، عند اختلاف النسخ . وقد رمزنا لها بالرمز : « د » .

وفى بداية النسختين ج ، د نجد هذا الافتتاح :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، رب يسر وأعن ، قال سيدنا ، العبد الفقير إلى الله تعالى ، قاضى القضاة ، حاكم الحكام ، شيخ الإسلام ، تاج الدين ، مفتى فرق المسلمين ، حجة الحفاظ والمفسرين ، سيف النظار والمتكلمين ، ناصر السنة ، مؤيد الملة ، أحد المجتهدين ، خطيب الخطباء المسلمين ، قدوة الفصحاء والبلغاء المفوهين ، أبو نصر عبد الوهاب بن سيدنا العبد الفقير إلى الله تعالى ، قاضى القضاة ، حاكم الحكام ، شيخ الإسلام ، تقى الدين ، أوجد المجتهدين أبى الحسن على بن سيدنا العبد الفقير إلى الله تعالى ، قاضى القضاة ، حاكم الحكام ، زين الدين أبى محمد عبد الكافي بن تمام الأنصارى الخزرجى السبكى الشافعى ، امتع الله الإسلام وأهله بطول حياته ، وأعاد عليهم من عوارفه وبركاته ، آمين » .

وقد طبع هذا الكتاب طبعة وحيدة سنة ١٣٢٤ هـ بالمطبعة الحسينية بمصر ، طبعة غاية فى النكر والرداءة ، شاع فيها التصحيف والتحريف ولم يذكر ناشرها الأصل الذى أخذت عنه ؛ ولذلك فقد أهملنا ذكر كثير من الفروق بينها وبين النسخ الأخرى ، ولم نذكر من الفروق إلا ما كان لذكره وجه .

وفى أصل الكتاب بياض فى بعض المواضع ، وتكرار لبعض التراجم ، ولبعض الفقرات ، كذلك نجد خلطا فى ذكر التراجم ، فقد ترجم ابن السبكى للفضل بن محمد ابن الحسين فى الطبقة الثالثة ، ثم عاد فترجمه فى الطبقة الرابعة ، ولعله تردد فى ذكره فى إحدى الطبقتين ، فوضعه فيهما لعدم وثوقه . كذلك نجد تكرارا لخاتمة الطبقة الأولى ؛ حيث ذكر هذه الخاتمة قبل ذكره الفوائد والمسائل عن يونس بن عبد الأعلى ، ثم عاد فختم الطبقة بها .

وكل هذه الهنات مشتركة بين الأصول ؛ المطبوع منها والمخطوط ، مما يدل على أن المؤلف

لقى ربه قبل أن يعود إلى مصنفه فيسد الخلل ، ويكمل النقص ، ونحن الآن بصدد تصوير نسخة كاملة من « الطبقات الوسطى » محفوظة بجامعة الدول العربية ، للاستفادة بها في تكميل هذا النقص ، ورتق هذا الخرق .

وفي دار الكتب المصرية قطعة من الطبقات الكبرى يقال إنها بخط المصنف ، وتشتمل على بعض التراجم .

وقد أخذنا نفوسنا عند العمل في هذا الكتاب ، بمضاعفة الجهد ، وبذل كل ما تحتمله الطاقة في ضبط نصوصه وأعلامه ، وتوثيق نقوله وشواهده ، وتخريج أحاديثه وأبياته . مع الحرص على سلامة النص ، وسهولة الرجوع إليه ، ويسر الاستفادة منه ؛ ولذلك فقد انتويننا أن نلحق بالكتاب فهرس كاشفة ، تدل على أعلامه وأماكنه ، وأبياته ، ورجزه ، وأمثاله ، وآيات القرآن ، وأحاديث الرسول ، والكتب التي أورد ذكرها المؤلف ، وسنضيف إلى كل ذلك - إن شاء الله - كشافا بمسائل العلوم والفنون التي احتفل بها المصنف ، وملاً بها كتابه ، وقد دفعنا إلى هذا الجهد المضاعف إيماننا بالمكانة العظيمة التي يحتلها هذا الكتاب في المكتبة العربية ، وحرصنا على أن نقدمه لجمهرة المثقفين ، ناضج الثمار ، داني القطاف .

ولا يسعنا في هذا المكان إلا أن نتقدم بالشكر إلى العلماء الأجلاء ، الذين أفدنا من توجيهاتهم .

وإلى الأستاذ فؤاد سيد ، على ما قدمه لنا من نصح كريم ، وعون مشكور .
وإلى الأستاذ محمد رشاد عبد المطلب ، على اهتمامه بإخراج هذا الكتاب ، وحرصه على أن يقدم لنا ما يعين على نشره وإتمامه .

* * *

ونسأل الله الكريم أن يسدد خطانا في سبيل هذا العمل العظيم ، وأن يعين على إتمامه كما
أعان على البدء فيه ، وندعوه أن يربط على قلوبنا فنمضى فيه مسددين موفقين ، إنه نعم
المولى ونعم النصير .

غرة رمضان المبارك ١٣٨٣ هـ
القاهرة في : ١٦ يناير سنة ١٩٦٤ م

عبد الفتاح محمد الحلو ، محمود محمد الطناحي

مصادر الترجمة :

- البداية والنهاية لابن كثير (١٤ / ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٨ ، ٣٠٣ ، ٣٠٦ ، ٣١٠ ، ٣١٦ ، ٣١٨)
- البيت السبكي للأستاذ محمد الصادق حسين .
- تاج العروس للزبيدي (س ب ك) .
- تاريخ الأدب العربي لبروكلمان (٢ : ١٠٨ ، ملحق ٢ : ١٠٥) .
- حسن المحاضرة للسيوطي (١ : ١٤٨) طبع مصر .
- الدارس في تاريخ المدارس للنعمي (١ : ٣٧ ، ٣٨ ، ٢٢٣ ، ٢٤٠ ، ٤٥٨ ، ٤٦٣) .
- الدرر الكامنة لابن حجر (٢ : ٤٢٥ - ٤٢٨) .
- درة الأسلاك في دولة الأملاك لابن حبيب (٣ لوحة ٢٤) مصور بدار الكتب .
- شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (٦ : ٢٢١ ، ٢٢٢) .
- فهرس جامعة الدول العربية (التاريخ) .
- فهرس دارالكتب المصرية (التاريخ) .
- فهرس الفهارس للكتاني (٢ : ٣٧٢ ، ٣٧٣) .
- كشف الظنون (١٠٠ ، ١٥٠ ، ٣٩٩ ، ٥٠٧ ، ٥٩٥ ، ٨٧٦ ، ١١٠١ ، ١١٥٧ ، ١٧٤٤ ، ١٨٥٥ ، ١٨٧٩) .
- المنهل الصافي لابن تغري بردي (١ : ٣٦٠) مخطوط بدار الكتب .
- المواعظ والاعتبار للمقرئ (٢ : ٢٧٩) .
- النجوم الزاهرة لابن تغري بردي (١١ : ١٠٨ ، ١٠٩) .

